الفصل الأول

أصول الفكر والعوامل المؤثرة على الشخصية الفنية

الفكـــر

التباين بين التفكير والشعور:-

الشعور يتميز بنوع من البساطة ,على نقيض الفكر الذى قد يصح القول بأنه يتميز بما يمكن أن يسمى بالقطبية الثنائية . اذ أننا كلما فكرنا أصبحنا إلى حد ما على وعى بوجود اختلاف بين التفكير الجيد والتفكير الردىء.

الشعور يتميز بنوع خاص من الخصوصية , بعكس ما يمكن أن يسمى بعلانية الفكر . فقد يشعر مائة من الناس بالبرد فى الطريق , الا أن كل شعور يشعر به أى شخص يعد خاصا به .

الأفكار قد تؤيد بعضها البعض أو قد يناقض بعضها البعض , أما الشعور فليس كذلك . أن ما نشعر به مقيد فى وجوده بالمكان والزمان الذى تم فيه الشعور , بينما ما نفكر فيه هو دائما شئ أبدى , فليست ثمة ضرورة إلى تقدير أبدية كل موضوعات الفكر كما هى كذلك . فاننا نعنى بشىء يدوم , حتى و ان لم يبق الى الأبد , أى بشىء يتكرر بحق باعتباره عاملا فى التجربة حتى اذا لم يتكرر إلى ما لا نهاية .

قارن سيل الشعور بسيل النهر . لكان الفكر شبيها بالأرض و الصخور التى تحدد مجراه والتى تتميز بصلابتها واستمرارها نسبيا . بل يرجع هذا الاختلاف إلى أن الصلة بين فعل التفكير وما نفكر فيه , مختلفة من حيث النوع عن الصلة بين فعل الشعور وما نشعر به .

أن كل محسوس يظهر له يكون محملا بشحنة انفعالية خاصة به , و أنه نظرا إلى ارتباط الاحساس و الانفعالات على هذا الوجه , فانهما يعدان عنصرين وثيقى الصلة فى كل تجربة من تجارب الشعور .

فيلوح أن طبيعتنا الحسية الانفعالية – باعتبارنا كائنات ذات شعور – مستقلة عن طبيعتنا الفكرية بوصفنا كائنات عاقلة . وهذه الطبيعة الحسية الانفعالية تكون مستوى من التجربة أدنى من مستوى الفكر . طابع الأساس الذى يقام فوقه الجانب العقلى من طبيعتنا , هو أساس قد وضع ووطد فى كل من تاريخ الكائنات الحية , بوجه عام , وفى تاريخ كل فرد قبل أن يقام فوقه بناء الفكر العلوى . وهو ييسر لهذا البناء العلوى أداء مهامه على خير وجه عندما تتوافر له سلامة الأحوال .

التفكير:-

يزود الشعور الفكر بأكثر من مجرد الأساس الذى يرتكن اليه . فهو قد يكون موضوعه الوحيد الذى يعنى به فى حالة تركزه عليه . والفكر فى صورته الأولية يبدو وكأنه لا يعنى بغير الشعور بحيث يستطاع القول بأن الشعور هو موضوعه الوحيد الكلى . وهذا لايعنى عدم وجود صورة ثانوية أخرى للفكر .

تجربتنا لعالم المكان والزمان , " عالم الطبيعة " هى تجربة حسية من جانب (وبعبارة أدق حسية انفعالية) وفكرية من جانب آخر.

الصورة الثانوية للفكر التى لانفكر فيها فى مشاعرنا أو نكتشف فيها صلات بين شعور وآخر , بل نفكر فيها فى أفكارنا , أى أننا نعنى فيها بالأسس التى يبحث وفقا لها فعل الفكر فى صورته الأولية الصلات بين المشاعر , أو بعبارة أخرى الأسس التى تقوم وفقا لها الصلات الباطنية بين مانفكر فيه فى مثل هذه المناسبات .[1]

الخيال و الوعى:-

الخيال أكثر حرية من الأحساس , وان كان الاحساس ليس مفتقرا كلية الى الحرية , لأنه فعل تلقائى للكائن الحى الواعى .

فالخيال اذن اذا نظر اليه فعلا حرا أو مظهرا من مظاهر الحرية , يبدو أنه يشغل مكانا متوسطا بين الأفعال الأقل حرية الخاصة بالشعور المحض , و بين الأفعال الأكثر حرية التى جرت العادة على تسميتها بالفكر .

الخيال يكون نوعا من الوصل بين الاحساس والفهم , كما اتفق أرسطو وكانط على القول بذلك.

فعل التفكير– يفترض سلفا على الدوام تحقيق فعل الانتباه . لابمعنى أنه لن يحدث الا بعده , بل بمعنى أنه يعتمد عليه , وكأنه أساس له .فالانتباه يسير جنبا الى جنب مع الفهم , ويتعدل بفعله , بطريقة تناسب حاجات الجمع بينهما .

---

[1] تأليف روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن , ترجمة د . أحمد حمدى محمود , مراجعة على أدهم ,الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ , ص١٦٣, ١٧٢

فعندما يضاف إلى التجربة النفسية المحضة للشعور (أى التجربة الحسية الأنفعالية الخاصة) , فعل الانتباه , فان كتلة الشعور التى تظهر أمام العقل تنقسم الى قسمين : قسم نتبه له ويدعى بالجانب "الواعى"(وبتعبير أصح ليس هذا الجانب هو الواعى , اننا الذين نعى به) , وما بقى هو الجانب "اللا واعى" . هو المقابل السلبى لما يتركز عليه الانتباه , أو ظلاله .

(الوعى . فهى تدل على معية الشيئين : الاحساس و المحسوس . فكلاهما حاضر أمام العقل الواعى .)

والوعى باعتباره سيداً فى داره يتحكم فى الشعور. فالكائن الواعى اذن ليس حراً فى تقرير أى مشاعر ستكون له , الا أنه حر فى تقرير أى مشاعر سيضعها فى مركز وعيه .فان حرية الوعى ليست حرية اختيار بين بديلين . ان هذا نوع من الحرية يجئ فيما بعد ولا يحدث الا عند ما تبلغ التجربة مرتبة الفهم .

فالانتباه إلى المشاعر يعنى الامساك بها أمام العقل , وتحريرها من سيل الاحساسات البحتة , والاحتفاظ بها أطول مدة قد تكون ضرورية , حتى نستطيع أن نلحظها .

فالنفس الواعية لا تظل خاضعة لمشاعرها , اذ هى تستطيع الانتقاء , وعزل أى عنصر متضمن فى هذه المشاعر و تركيز الانتباه عليه . وفضلا عن ذلك , وعندما يتحقق ذلك , يتخذ الشعورالذى أنتبه له على هذا الوجه بالنسبة إلى التجربة النفس جملة , طابع الفكرة لا طابع التأثير . فهو لا يتحكم , بل يطيع . وهو لايقرر رد الفعل الخاص بالنفس , بل يمثل هيمنة النفس على ما يتبعها.[1]

<u>و التأثير بوصفه شعورا بحتا . فنحن فى الواقع قد فرقنا بين ثلاثة أطوار يمر بها الشعور:-</u>

١- الشعور عندما يكون شعورا بحتا , أى أدنى من مرتبة الوعى .
٢- الشعور الذى عندما نصبح على وعى به .
٣- الشعور الذى أصبحنا على وعى به , و قررنا صلته بالأشياء الأخرى علاوة على ذلك .

يحول فعل الوعى - التأثير إلى فكرة, أو يحول بمعنى آخر الاحساس الخام الى خيال. فالخيال اذن هو الشكل الجديد الذى يبدو فيه الشعور بعد تحوله بفعل الوعى . الخيال مرتبة متمايزة من التجربة تقع فى موقف وسط بين الاحساس والفهم .

فالوعى ليس شيئا آخر غير الفكر : أنه الفكر ذاته , الا أنه مرتبة من الفكر لم تبلغ بعد مرتبة الفهم. (ملحوظة : الفكرالسابق لم يكن بأوسع معانيه , أى الذى يتضمن الوعى , بل كان الفكر أضيق هو الفكر النموذجى أو التفهم).

ومهمة الفهم هى ادراك الصلات أو انشاؤها .أحدهما أولى و الآخر ثانوى . فالفهم فى مهمته الأولى يدرك الصلات بين الأطراف التى أسميناها بالمشاعر. والتأثيرات انهاهذه المشاعر بعد أن تحولت بوساطة الوعى و أصبحت أفكارا . و الفهم فى مهمته الثانية يدرك الصلات بين أفعال التفهم فى أول مراتبه , أو بين مانفكر فيه فى مثل هذه الأفعال .

فاذا افترضنا أننى قمت أثناء انشغالى بأية فكرة على هذا الوجه باستدعاء فكرة أخرى , فان الفكرة الجديدة لن تظهر إلى جانب الفكرة القديمة باعتبارهما تجربتين متمايزتين أستطيع كشف أية صلات بينهما . فالفكرتان تمتزجان فى فكرة واحدة , فتظهر الفكرة الجديدة نفسها تلوينا خاصا للفكرة القديمة , أو تحويرا لها . و هكذا يتشابه الخيال مع المشاعر فى أن موضوعه لا يتألف من كثرة من الأطراف بينهما صلات , بل هو وحدة مفردة لا تتجزأ, أو مجرد هنا و الآن. فالتصورات الخاصة بالماضى و المستقبل و الممكن و الفرض لا معنى لها عند الخيال , كما هو الحال عند الشعور ذاته . انها تصورات لا تظهر الا فى حالة تقدم لاحق للفكر . [2]

"افساد الوعى" . اذ أن الوعى قد سمح لنفسه بالارتشاء أو بالتعرض للفساد أثناء أداء مهمته . فان النفس الواعية تنكر مسئوليتها عنها , و بذلك تحاول التهرب من الخضوع لها , و لاتبالى باخضاعها لها . و هذا هو الوعى الفاسد الذى يعد مصدر ما أسماه السيكولوجيون بالكبت .[3]

<u>اللغة (الفن) و الفكر:-</u>

الفن تعبير خيالى عن الأنفعال. فان الانفعالات التى سيعبر عنها لن تكون مجرد انفعالات وعى فى أدنى مراتبه الحسية . أنها ستتضمن انفعالات الفكر .

---

[1] مرجع سابق, ص٢٠٢, ٢١٤
[2] مرجع سابق ,ص ٢٢٧
[3] مرجع سابق ,ص ٢١٧, ٢٢١, ٢٢٨

والاختلاف بين الخيال والفهم بوجه عام , هو أن الخيال يعرض على نفسه موضوعا يجريه على أساس أنه شئ واحد لايتجزأ بينما الفهم يتجاوز هذا الشئ الواحد و يعرض لنفسه كثرة من الأشياء, بينهما صلات من أنواع محددة.[٣]

وفى مستوى التجربة الخيالية , يترجم الانفعال الفطرى فى المستوى النفسى إلى انفعال فى مستوى الفكرة , أو ما يدعى بالانفعال الاستاطيقى , ويتم الشعور بهذه الشحنة الانفعالية تلوينا جديدا , يتلون به هذا الانفعال عند التعبير عنه . و بالمثل يتحول الفعل النفسى الطبيعى الذى كان الانفعال المعطى هو شحنته إلى فعل موجه للكائن , خاضع لسيطرة الوعى الذى يوجهه . وهذا الفعل هو اللغة أو الفن . فهو تجربة خيالية تعد متمايزة عن التجربة النفسية الطبيعية البحتة.[٤]

لو أمكن تحديد معنى الخيال تحديدا وافيا ,على أنه صورة للتجربة تعمل على تقديم الحقيقى و غير الحقيقى فى خليط أو مزاج غير محدد المعالم , يقوم الفهم بعد ذلك بترسيب الحقيقة منه أو بلورتها, لغدت للفن بوصفه خيالا مهمة حقة وهامة فى الحياة. ووفقا لهذه النظرية , تكون مهمة الفن هى أنشاء عوالم ممكنة سيرى الفكر فيما بعد بعضها حقيقيا ,أو سيحولها الفعل الى حقيقة.

تميز الفن الحق بمهمتين . المهمة الأولى **خيالية** , و المهمة الثانية هى **التعبير** . وأى خيال يقنع بانشاء العوالم الممكنة لن يمكن أن يكون اطلاقا تعبيرا عن الانفعال فى نفس الوقت ,لأن قيام الخيال الانشائى بالتعبير عن الأنفعال أمر ضرورى , وليس مجرد أمر ممكن فحسب. وضرورته قد جاءت من هذا الانفعال , اذ هو وحده الذى سيقوم بالتعبير عنه .

والفن لا يمكن أن يقف موقف عدم مبالاه بالحقيقة . فهو أساسا يرمى إلى بلوغ الحقيقة. الا أن الحقيقة التى يبحث عنها ليست حقيقة خاصة بصلات بين الأشياء, بل هى حقيقة ادراك ماهية الواقعة المفردة. والحقائق التى يكتشفها الفن هى تلك الأشياء الفردية القائمة بذاتها التى تصبح من وجهة نظر الفهم " الأطراف " التى يضطلع الفهم بتقرير الروابط التى تربط بينها, أو ادراكها. [١]

الفكر و الفنان:-

اذا تأملنا التجربة الاستاطيقية وفقا لنظرة نميز فيها الفعل النظرى من الفعل العملى , فسنرى أنها تظهر خصائص من كلا النوعين . ففيها تتمثل معرفة الانسان لنفسه ومعرفته بعالمه . ولا تمايز قد حدث بعد فى هذه التجربة بين العارف والمعروف.

والتجربة الاستاطيقية تدل كذلك على قيام الانسان بصنع ذاته وصنع عالمه . فالذات التى كانت فى الاصل نفسا قد أعيد صنعها فى شكل الوعى, والعالم الذى كان محسوسات فطرية قد أعيد صنعه فى شكل اللغة , أو فى صورة محسوسات حولت إلى خيالات وعبئت بانفعالات لها دلالة , ومن ثم تكون الخطوة المتقدمة التى خطتها التجربة من المرحلة النفسية إلى مرحلة الوعى و ما يحدث فيها هو الانجاز الذى يتميز به الفن .

لو أننا فحصنا أى عمل فنى , نختاره كما نشاء , و تأملنا الانفعالات التى يقوم بالتعبير عنها فسنرى أنها تتضمن بعضا من الانفعالات الفكرية (الانفعالات التى لايمكن أن يشعر بها سوى كائن مفكر) . ويتم الشعور بها فى الواقع لأن مثل هؤلاء الكائنات يستخدمون عقلهم بطرائق معينة . و الشحنات الانفعالية التى تظهر فى هذه الحالة ليست شحنات خاصة بالتجربة النفسية البحتة أو خاصة بالتجربة فى مستوى الوعى البحت , بل هى خاصة بالتجربة الفكرية , أو بالفكر فى أضيق معنى للكلمة. [٢]

العمل الفنى بالمعنى الحق للكلمة ليس "أداة" ,أى أنه ليس جسما أو مدركا حسيا يصنعه الفنان, بل هو شئ موجود فى رأس الفنان وحده , أى هو مخلوق من عمل خياله . وهو ليس تجربة خيالية مرئية أو سمعية فحسب , بل تجربة خيالية شاملة. حيث أن كل تجربة خيالية هى تجربة حسية قد رفعت الى المستوى الخيالى بواسطة فعل الوعى , أو أن كل تجربة خيالية عبارة عن تجربة حسية بالأضافة الى الوعى بهذه التجربة . ومن هذا يتضح أن التجربة الأستاطيقية تجربة خيالية . فهى خيالية قلبا وقالبا , اذ أنها لا تتضمن أى مكونات ليست خيالية. و القدرة الوحيدة التى تستطيع احداثها هى قدرة وعى صاحب التجربة .

" لاشئ فى الخيال لم يسبق وجوده فى الأحساس ". اذا أردت أن تنتزع أكبر قدر من التجربة , فعليك أن تضع فيها أكبر قدرمن نفسك , و ما يضعه المصور عند تجربته لأى موضوع أكبر بكثير ممن يكتفى بالنظر اليه ,هذا بالاضافة إلى ما يضعه عندما يرسم الموضوع , وهو ما تحقق بعد وعى كامل . فما ينتزعه الرسام من التجربة اذن هو شئ أكثر نسبيا .

---

[١] مرجع سابق , ص ٢٥٤, ٢٥٥
[٢] مرجع سابق , ص ٢٧٦
[٣] مرجع سابق , ص ٢٨٨, ٢٩١
[٤] مرجع سابق ,ص٢٩٤, ٢٩٦

وهذه الزيادة تتمثل بالضرورة فى الشئ الذى أستطاع تجسيمه فى صورته أو تسجيله. بل يسجل التجربة الأخصب, والبعيدة الاختلاف فى نواح أخرى , الخاصة برؤيته وبرسمه معا. [١]

الفعل الاستاطيقى فعل من أفعال الكلام .و الكلام لن يكون جديراً بهذه التسمية الا اذا جرى كلام واستماع معا . فكما توجد صلة بين كل فنان و بين الفنانين الأخرين الذين اكتسب منهم فنه ,كذلك ثمة صلة بينه و بين نفر من المتذوقين الذين يخاطبهم. فما يجعلهم شعراء أو مصورين أو موسيقيين ليس عملية نمو تحدث فى باطنهم , بل هو الحياة فى مجتمعات تتكلم هذه اللغات. فهم مثل غيرهم يوجهون كلامهم إلى أولئك الذين يفهمون . [٢]

لاينصب اهتمام الاستاطيقى, على وقائع غير محددة بزمان تنتسب إلى عالم ميتافيزيقى علوى , بل يتركز هذا الاهتمام على وقائع تتبع مكانه و زمانه. [٣]

---

[١] مرجع سابق ,ص٣٠٦, ٣٠٨
[٢] مرجع سابق ,ص ٣١٧
[٣] مرجع سابق ,ص ٣٢٥

توضيحات فلسفية:

- حركة التنوير The Enlightenment:-

خصائص التنوير هى **التشككية اتجاه عقائد الكنيسة ,والنزعة الفردية , والإيمان بالعلم و المنهج التجريبى, وأستخدام العقل, والتعليم الذى أمكن أن يكون عاملا محفزا للتغييرالاجتماعى والمطالبة إلى التمثيل السياسى** . فقد كان ذلك نتيجة رئيسية اجتماعية وسياسية للثورة الفرنسية.

كانت جوهر فترة حركة التنوير النصف الثانى من القرن الثامن عشر , المفكرون الذين ارتبطوا بحركة التنوير هم دى هولباخ d'Holbach (١٧٢٣-٨٩) الموسوعى من فرنسا , دافيد هيومDavid Hume (١٧١١-٧٦) من اسكتلندا , وكانط Kant من ألمانيا , ولفهم عصرالتنويرعلينا أن ننظر إلى ما سبقه.

بدأت معركة الأفكار التى وصلت إلى ذروتها فى حركة التنوير فى القرن السابع عشر, فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) الذى دعا إلى استخدام المنهج العلمى و رينه ديكارت René Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠)الذى اقترح العقلانية الحاسمة **rationalism** ,ويمكن فهم حركة التنوير باعتبارها تتويجا للابتعاد عن السلطة و العقائدية المغطرسة للعصور الوسطى وايقاظ الحداثة.

فلسفة العصور الوسطى جمعت بين المعتقدات المسيحية وأفلاطون Plato وأفكار أرسطوAristotle, فى عالم فلاسفة العصورالوسطى احترموا أسلافهم وقبلوا أساليبهم ,فإذا كان هناك أكتشاف جديد حول الطبيعة يتناقض مع إحدى مبادىء أرسطوعلى سبيل المثال من المحتمل أن يكون الاكتشاف مخطئ.

مفكرو حركة التنوير لم يكونوا على قبول باللجوء إلى سلطة أرسطو , ويمكن أن نرى أن استخدام الأساليب التجريبية للعلم يحرزتقدما و يزيد من فهمنا للطبيعة ,والتى لم يكن دون رفض بعض افتراضات أرسطو , ولم يكن أرسطو الوحيد الذى جرى التشكك به, وذلك باستخدام عقل ومنطق الفلاسفة المنتقدين للأفكار السياسية والدينية , فما هو الجواب العقلانى لتبرير الملكية أو وجوب اختيار نوع من دين على آخر؟

- العقلانية Rationalism:-

العقلانى هو فيلسوف يعتقد أنه يمكن الحصول على المعرفة عن طريق العقل وحده , دون مرجع الى العالم الخارجى .[1]

العقلانية لها تاريخ طويل فى الفلسفة ,أفلاطونPlato (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) كان عقلانيا، وكان رينه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ -١٦٥٠),"أب الفلسفة الحديثة" أول عقلانى حديث. كان يرى أن الفلسفة يجب أن تبتعد عن المعتقدات الدينية و توجد لنفسها أسسا ثابتة, كان يبحث عن اليقين, و استخدام أسلوب الشك فى محاولة لإيجاد ما لايرقى للشك.

كان يتصور أن حياته كلها يمكن أن تكون هلوسة ناجمة عن "الشيطان الخبيث", إذا كان هذا هو الحال فما الشئ الذى يمكن أن يتأكد منه؟ أدرك ديكارت أنه لا يستطيع الشك فى أنه يفكر، فالشك هو نوع من التفكير, لذلك من دون أى مرجع إلى العالم الخارجى ديكارت كان واثقا من أنه وجد الحقيقة الأساسية التى لا يمكن أن تكون موضع تساؤل, بالطبع ذات مرة أطلق أنه كان يفكرأنه لم يعد يستطيع الشك فى أنه موجود (شىء يجب أن يقوم به التفكير), وهذا مكنه من بناء نظام فلسفى يقوم على الفكر وحده .

حالما ديكارت أعاد تقديم التساؤل الحاسم فى الفلسفة ترك المشهد للكفاح لمائة عام الأمرالذى أدى إلى حركة التنوير, كما هناك فلاسفة عقلانيون آخرون شملوا سبينوزا Spinoza, لابينيز Leibniz, كانط (كانت) Kant, وهيجل Hegel .

- التجريبية The Empiricism :-

التجريبية هو الاعتقاد بأن كل معرفة تأتى من الخبرة ."العالم التجريبى " هو عالم الحواس، أى العالم الذى يمكن أن نراه، نشعر به، نلمسه، ونستمع إليه ونشمه.

فكر جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) أن العقل البشرى عند الولادة هو tabula rasa (blank tablet) لوح فارغ, حيث التجربة هى التى تكتب المبادئ العامة والتفاصيل لجميع المعارف ,هذا عكس العقلانيين تماما ,فى حين أن العقلانى فى محاولة العثور على معرفة عن طريق الفكر وحده , التجريبى يستطيع استخدام أساليب العلوم التجريبية.

التركيز على العلم والتجربة هى واحدة من خصائص حركة التنوير . هولباخ D'Holbach (١٧٢٣-٨٩) نشر "نظام الطبيعة *Systèm de la nature*"(١٧٧٠)الذى أكد فيه أنه لاينبغى تفسيرالطبيعة على أفكار المعتقدات التقليدية أو "وحى

---

[1] http://www.philosopher.org.uk/

revelations " الكنيسة . ولكن من خلال تطبيق المنهج العلمى .الذى لم يكن حتى كانط حيث جمع خيوط التجريبى والعقلانى معا .

- الموسوعيون The Encyclopedists:-

الموسوعة أوالقاموس المنطقى للعلوم و الفنون و الحرف (*The Encyclopédie ou Dictionnaire Raisonné Sciences, des Arts et des Métiers*) نشرفى سبعة عشر مجلدا من ١٧٥١حتى ١٧٦٥ , وكان هدفه تقديم معلومات فى كل مجال من مجالات المعرفة, وعلى وجه الخصوص لتعزيز تطبيق العلم فى الصناعة والتجارة والفنون , ينظرإليها من البعض كخلاصة لروح عصر النهضة .

دونى ديدرو Denis Diderot (١٧١٣-١٧٨٤) التزم بالاتجاه التجريبى و كتب فى الفلسفة , والدين , و النظريات السياسية و الأدب , وكان شديد الانتقاد لنفوذ الكنيسة على الأفكار.

فولتيرVoltaire (١٦٩٤- ١٧٧٨) أيضا حرر و ساهم فى الموسوعة Encyclopédie ,وكان ضد المسيحية و انتقاديا لرجال الدين والملك و امتيازات النبلاء , وكان مؤثرا للغاية فى صعود الفكر الليبرالى فى أوربا القارية .

جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢- ١٧٧٨) كتب فى الموسيقى والاقتصاد السياسى, فى وقت لاحق تشاجرمع ديدرو Diderot وأصبح يعتبر الموسوعة كعمل من الشيطان.

لم يكن روسو وحده, ففى عام ١٧٥٢ و ١٧٥٩ أدار اليسوعيون قمع المنشور, مع ذلك ديدرو ظل ثابتا بقرب عام ١٧٧٢ نشر المزيد من أحد عشر مجلدا من الصفائح, فطموح ديدرو ل"تغيير العادات المقبولة من الفكر" كان ناجحا إلى حد كبير.

التمييزالتحليلى / التركيبى The analytic/synthetic distinction:-

بعض البيانات نحكم عليها بأنها صحيحة أو خاطئة بناءً على علاقتها بالحقائق فى العالم، على سبيل المثال إنك الآن تقرأ هذا الكتاب, كونك تقرأ هذا الكتاب يسمى ذلك عندالفلاسفة بالحقيقة التركيبية synthetic truth , وهناك بيانات أخرى نحكم عليها بأنها صحيحة نظرا لمعانى الكلمات المعنية, يمكننا أن نعرف أن الجملة " جميع العزاب غير متزوجين ".فهى صحيحة دون الحاجة إلى القيام بتحقيق للعزاب ، وذلك لأن الجملة صحيحة من خلال التعريف. وهى الحقيقة التحليلية analytic truth .

الحقائق التركيبية هى "حقائق الواقع"، والحقائق التحليلية هى "حقائق العقل", نستخدم الأساليب التجريبية للتحقق من البيانات التركيبية والأساليب العقلانية للتحقق من البيانات التحليلية.

كان كانط أول من استخدم مصطلح التركيبية والتحليلية, وأشار إلى أن جميع الحقائق التحليلية ضرورية، وهذا يعنى أنها لايمكن أن تكون خلاف ذلك, إذا كنت توافق على أن تعريف العازب هو رجل غير متزوج، من ثم البديهى أن كل العزاب غير متزوجين.

البيانات التركيبية ليست ضرورية, الفلاسفة استخدموا كلمة مشروطة contingent لوصف ما هو غير ضرورى, فإنه صحيح ليس بالضرورة أنك تقرأ هذه الصفحة على الأنترنت لأنه من الممكن أن تقرأ النسخة المطبوعة على سبيل المثال.

من المهم التمييزبين التحليلى / التركيبى فى الحجة, فإذا حاولت الجدال بأن هناك شيئا صحيحا عليك أن تكون واضحا حول ما إذا كنت تقوله شيئا عن العالم التجريبى، أو أن توضح معانى الكلمات.

منطق logic:-

الفلسفة الجيدة يجب أن تستند إلى حجج وجيهة، وليس الحجج بمعنى المشاجرات، ولكن الحجج المسببة, المنطق يمكن أن يفهم كعلم المنطق السليم؛ ما يفصل بين الحجة الجيدة والسيئة , الطريقة المفيدة لفهم الحجج وما يجعلها جيدة أو سيئة هو تقسيمها إلى نوعين : استنتاجية deductive واستبطانية inductive.

فى الحجة الاستنتاجية، يقال بأن النتيجة صحيحة إذا كانت تترتب على فرضية (البيانات مبدئية). الشكل المعروف الأفضل من الحجة الاستنتاجية هو القياس المنطقى syllogism، وأبسط ما تتكون من فرضيتين ونتيجة:

- الفرضيية الأولى بأن جميع الفلاسفة حكماء.
- الفرضية الثانية بأن سقراط فيلسوف.
- النتيجة لذلك، سقراط حكيم.

ولكن إذا كان الافتراض الأول بأن"بعض الفلاسفة حكماء" لم نتمكن من التأكد من أن سقراط حكيم، كما أنه قد لايكون واحدا من الفلاسفة الحكماء . المنطق الاستنباطى لا يطالب بالأدلة التجريبية، طالما أن الفرضيات صحيحة والحجة صالحة من ثم النتيجة يجب أن تكون صحيحة.

المنطق الاستبطانى يهتم بالتعميم عن العالم التجريبى القائم على الملاحظة الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلم التجريبى (فالتجربة هى نوع معين من الملاحظة), دعونا نقول أننا مهتمون فى شخصية الأشخاص مع وجود علامات فلكية مختلفة، ونحن نلاحظ صاحب برج العذراء مرتبا, فنحن قد نرغب فى صنع تعميم بناء على ذلك, وعلى الرغم من ملاحظاتنا قد ساندت هذا التعميم إلا أنه لايمكننا أن نكون متأكدين من أنه قد ينطبق على جميع أصحاب برج العذراء، فأن ذلك فقط ما لاحظناه, وقد يكون هناك برج العذراء فى المستقبل، أو فى بعض البلاد الأخرى ليس شبيها بذلك.

- الحتمية Determinism:-

فكرة الحتمية هى أن كل الأحداث هى نتائج لأسباب سابقة, فإذا سخنا قضيبا من الحديد فالقضيب يتمدد، فيمكنا القول بأن الحرارة هى سبب التمدد.

وترتبط فكرة الكون المحتم ماديا بالسير إسحاق نيوتنSir Isaac Newton (١٦٤٢-١٧٢٧), وتسمى هذه فى بعض الأحيان منظركرة البلياردوللطبيعة ؛ كرة البلياردو تتحرك فقط عندما تمثل عليها قوة أخرى مثل كرة بلياردو أخرى تضربها, لو تمكنا من قياس السرعة الدقيقة وزاوية كرة البلياردو الأولى، يمكن أن نتوقع حركة الثانية.

المشكلة الفلسفية تأتى مع البشر, إذا كنا قد تقبلنا وجهة النظر التجريبية ؛ حيث أن البشر هم نظم منظمة للمادة , وإن عقولنا قد تشكلت كنتيجة لخبرات , ومن ثم قد نريد أن نفسر السلوك البشرى من حيث السبب والنتيجة.

إذا كنا نعرف ما يكفى عن البيولوجية التى تشكل الفرد، تجاربه فى مرحلة الطفولة المبكرة والظروف الاجتماعية والتاريخية التى ولد بها، عندئذ ربما يمكننا التنبؤ بجميع تصرفاته, من هذه وجهة النظرفكرة الإرادة الحرة (القدرة على الاختيار) هى ببساطة نتيجة ل أو الجهل بجميع العوامل السببية. هذه بقدرما كانت مشكلة بالنسبة ليومنا هذا كانت لمفكرى حركة التنوير, فقد أعتقد أنى فى حالة حب مع رفيقة الروح الفريدة ، لكن قد يكون جسدى منتجا موادا كيميائية جعلتنى أقع فى الحب من أجل تكاثرالأنواع.

وإذا لم يكن هناك شىء اسمه الإرادة الحرة من ثم لا يمكننا تطبيق المفاهيم الأخلاقية مثل الخير والشر. فالأخلاق توجد فقط عندما يكون هناك اختيار. بطبيعة الحال، إذا كنا نعتقد أن الطبيعة البشرية هى شىء آخرغيرالأسباب السابقة، من ثم يجوز لنا القول بأن الناس لديهم مسؤولية عن أعمالهم.[1]

كانط Kant:-

يعتبر إيمانويل كانت Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤) واحدا من أهم الفلاسفة على الإطلاق, فهو شخصية رئيسية فى عصرالتنوير حاول الجمع بين العقلانية والتجريبية فى فروع فلسفته, كتب فى العلوم الطبيعية، والميتافيزيقيا (ما هى الحقيقة)، والأخلاق والدين.

كان معجبا بالتقدم فى العلوم الطبيعية بعد نيوتن وكان يخشى أن الفلسفة فى المقابل تكون مشوشة ومليئة بالخلاف, وكان مشروعه هومحاولة لايجاد أن الفلسفة يمكن أن تقول أى شىء على الإطلاق.

ورأيه بأن دور الفلسفة هوكشف كيفية فهم البشرأو تصنيف العالم, وواحدة من استنتاجاته هى أن نفهم العالم من خلال فئات مثل المكان والزمان, ونفرض هذه الفئات على الأشياء، وأنها خاصية فهمنا بدلا من خصائص الاشياء.

فى الفلسفة الأخلاقية بدأ من فكرة أن جميع البشر عقلانيون ومستقلون (أحرار فى اتخاذ القرارات), من هذا المنطلق ذهب إلى القول بأن القوانين الأخلاقية العالمية ممكنة.

كان كانط يود إن يجد أساسا سليما لفلسفة الإيمان بالله، ووجد أن كل المحاولات الفلسفية لإثبات وجود الآلهة غير مرضية, بالنسبة لكانط إذا كان الله موجودا هى مسألة إيمان بدلامن العقل.

كانت جميع الفلسفات الغربية منذ عصرالتنوير مصبوغة بكانط، والفلاسفة اليوم لا يزالون مشاركين بفاعلية فى مناقشة أفكاره.

---

[1] مرجع سابق

- الرومانتيكية Romanticism :-

الفترة الرومانسية أكدت على الذات والإبداع والخيال وقيمة الفن, هذا على النقيض من عصر التنوير الذى ركز على العقلانية والتجريبية.

ويمكن العثور على جذورها فى أعمال جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وإيمانويل كانت Immanuel Kant , الفلاسفة والكتاب الذين ارتبطوا بالحركة الرومانسية شملوا يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢)، فريدريخ فيلهلم يوزيف فون شيلينج Friedrich Wilhelm Joseph von Schelling(١٧٧٥-١٨٥٤)، وجورج فيلهلم فريدريخ هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel(١٧٧٠-١٨٣١) فى ألمانيا؛ صمويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge (١٧٧٢-١٨٣٤) ويليام وردزورث William Wordsworth (١٧٧٠-١٨٥٠) فى بريطانيا.

الرومانسية فلسفيا تمثل تحولا من الموضوعى إلى الشخصى , العلم يدعى وصف العالم الموضوعى،العالم الذى لا يفهم من وجهة نظر خاصة. تخيل ثلاثة أشخاص يشاهدون المناظر الطبيعية، واحد مزارع، والثانى فى مجال التطوير العقارى والثالث فنان , يرى المزارع إمكانية زراعة المحاصيل وتربية الماشية، والتطوير العقارى يرى الفرصة لبناء المنازل والفنان يرى ظلال ورقة اللون والشكل , أى أن ليس واحد من هؤلاء الأفراد يشاهد المنظر الطبيعى بشكل موضوعى، بل يشاهدونه من وجهة نظر معينة أو شخصية.

الانتقال من الموضوعى إلى الشخصى هو نتيجة لفكرة كانط بأن البشر لا يرون العالم مباشرة، ولكن من خلال عدد من الفئات. نحن لا نرى مباشرة "الأشياء فى ذاتها"، نحن لا نفهم العالم إلا من خلال وجهة نظرنا الإنسانية, وإذا اتفقنا مع كانط أننا لا يمكن أبدا معرفة الأشياء فى ذاتها، نحن كذلك قد نتخلص منها. وهذا يؤدى إلى المثالية، والاعتقاد بأن ما نسميه "بالعالم الخارجى" يتم إنشاؤه نحوا ما بعقولنا.

تركيز حركة التنوير على الحتمية التجريبية للكون ترك مجالا كبيرا للحرية والإبداع والروح الإنسانية, فالتركيز الرومانسى على الفن و الخيال هو رد فعل مباشر حاسم لرؤية آلية بعض شخصيات عصر التنوير.

التركيز الرومانسى على الفرد قد انعكس على الأفكار فى إدراك الذات والطبيعة, وردورث Wordsworth اعتقد أن الفرد يمكن أن يفهم الطبيعة مباشرة دون الحاجة إلى المجتمع و الخداع الاجتماعى، فالخلاص يتحقق من قبل الفرد المنعزل وليس من خلال الحركات السياسية.

جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau:-

"**الإنسان ولد حرا، وهو فى كل مكان فى قيود** " كتبها روسو فى عام ١٧٦٢, وأعرب عن اعتقاده أن الحضارة تملأ "الإنسان" بحاجات غير طبيعية وتغويه بعيدا عن طبيعته الحقيقية وحريته الأصلية. فقد نسب لروسو فكرة "المتوحش النبيل Noble Savage" الذى لم يفسد بالخداع والمجتمع, ففى "إميل*Émile* " (١٧٦٢) وصف تربية الكائن الحر الذى شُجع لتطوير التعبير عن الذات من خلال نبل الطبيعية وحرية الروح.

فى " العقد الاجتماعى *Social Contract* " (١٧٦٢) حاول وصف المجتمع الذى فيه النبل الطبيعى يمكن أن يزدهر,حيث المجتمع يستند إلى تعاقد لكل فرد من شأنه أن يعطى كل حقوقه إلى المجتمع، ولكن جميع القرارات الجماعية سوف تستند إلى الديمقراطية المباشرة (ديمقراطية حيث كل عضو لديه الفرصة للتصويت على كل مسألة),الجميع مشارك فى صنع القرار وينظر الى التعاقد على أنه شرعى.

والدولة ينظر إليها تمثيل للصالح العام أو الإرادة العامة, وتلك الإرادة العامة سوف لا تكون مضطربة مع "إرادة الجميع will of all" **:** " إرادة الجميع"هى ما يعتقده الأفراد بأنهم قد يرغبون فيه ويشتمل الدوافع الأنانية, و" الإرادة العامة General will " هى ما يرده الناس إذا كانوا عقلانيين ويعتبرونه بالضرورة جيدا, فإذا كان هناك شخص لا يريد الانصياع للإرادة العامة من ثم يجب أن "يجبر أن يكون طليقا ", تخيل مجموعة من الناس يحاولون عبور الجسر الذى هو غير معروف لهم، بأنه ضعيف وخطير, فحامى البوابة رفض السماح للمجموعة ان تمر فأنهم يشعرون بأن حريتهم قد بترت فتبعا لذلك هم ليس لديهم فهم كامل للوضع, فالبواب أجبرهم على أن يكونوا طلقاء, فإذا لم يوقفوهم عندئذ قد يلقون حتفهم على الجسر الضعيف, روسو يشبه هذا الوضع بالشخص الذى لا يفهم لماذا يجب أن يطيع الإرادة العامة. فلتطع ما هو الأفضل للجميع تحقق أقصى قدر من الحرية لكل منهم.

الفن والخيال: شيلينج وكوليردج Art and Imagination:-

اتفق شيلينج Schelling مع كانط Kant فى أن الأشياء الوحيدة التى لدينا معرفة مباشرة عنها هى الوعى, فالعالم الخارجى ينظر إليه كعامل مساعد لما هو أكثر واقعيا : **وهو العقل**, والطريق الذى فيه يصل العقل إلى الوعى الكامل بنفسه يكون من خلال الفن.

كان كوليردج Coleridge مهتماً بعلم نفس الإبداع الفنى وغير راض بالفكرة التجريبية بأن العقل مجرد ممتص سلبى للتأثيرات, وبعد قراءة شيلينج للمثاليين وغيرهم، وجد وسيلة لانتقاد الرؤيّة الزائدة لميكانيكية حركة التنوير.

الرؤية الآلية للعقل بالذرية atomistic وهى ببساطة مجموع تجربته, نظركوليردج إلى العقل بأكثرمن مصطلح عضوى، بل يؤدى وظيفته أكثرشبهاً لكائن حى منه لمحرك, الكائن الحى يمكن أن يكون خلاقا ، ولكنه من الصعب أن نرى كيف يمكن لمحرك أن يخلق الشعر.

يعتقد كوليردج أن المثقفين لهم دوراهاما فى نشر الثقافة من أجل تحقيق مجتمع أقرب إلى حالة من الانسجام.

كما رأى كوليردج أن نسخة المثالية يمكنها التوفيق مع معتقداته المسيحية، وأن نظريات كانط الأخلاقية كانت فى تناغم مع المشاعرالمسيحية.

هيجل وجيست Hegel and Geist:-

كان هيجل أكثر تأثيرا فى الفلاسفة المثاليين الألمان، ولعله الفيلسوف الأكثر أهمية منذ كانط, أصبح أستاذا فى هايدلبرج فى عام ١٨١٦ وكان أستاذا للفلسفة فى برلين من ١٨١٨ حتى وفاته فى عام ١٨٣١.

مثل المثاليين الآخرين اتفق مع كانط فى أن العقل ليس مجرد ممتص سلبى من العالم الخارجى، ولكن بفاعلية ينظمه, كما أن العقل لا يعرف الأشياء فى ذاتها، ما يصبح حقيقى هو جيست Geist :العقل، والروح. كما يقول هيجل: "الواقعى هو العقلانى والعقلانى هو الواقعىThe Real is the Rational and the Rational is the Real ".

يرى هيجل الجيست (الروح) Geist نامية عبر التاريخ، كل فترة لها Zeitgeist (روح العصر). هذه المراحل سوف تصل فى النهاية إلى telos (فى اليونانية "نهاية") من فهم الذات، وهذا هو عندما تصل جيست لتعرف نفسها.

فقط عندما جيست تعرف نفسها يمكن أن تكون حرة : من الممكن فقط أن تكون حرة إذا فهمنا الواقع, إذا كنا لا نفهم الواقع فإننا لسنا فى وضع يمكننا من إصدار حكم حر، نحن نكافح عبثا ضد مالا نفهمه.

بالنسبة لهيجل لكل شخص وعى أوعقل هو حقا جزء من العقل المطلقAbsolute Mind ،فالفرد فقط لا يدرك ذلك, إذا فهمنا أننا كنا جزءً من الوعى الأكبر لم نكن قلقين للغاية بخصوص حريتنا الفردية، فإننا نتفق مع التصرف بعقلانية بالطريقة التى لا نتبع فيها هوانا الفردى, فبواسطة اتباع الحقيقى أو العقلانى كل فرد سوف يحقق الذات.

- المثالية مقابل المادية Idealism Vs Materialism :-

الفلسفة فى أوروبا القارية بعد كانط أصبحت مثالية على نحو متزايد, فى حين لا يزال الفلاسفة مختلفين مع بعضهم البعض عن كل شىء تقريبا، الأمرالذى ظل يشغل القرن التاسع عشر تماما بقدرالقرن الثامن عشر.

بعد هيجل ولد تفسيران مختلفان للهيجلية Hegelianism نتج عنهما مجموعتان مختلفتان: " **الهيجليين القدماء** Old Hegelians" الذين قبلوا دون تمحيص آراء هيجل و"**الهيجليين الشباب**Young Hegelians " الذين يريدون مواصلة ثورة الأفكار مستخدمين الجدلية الهيجلية . لودفيج فيورباخ Ludwig Feuerbach(١٨٠٤-١٨٧٢) وكارل ماركس Karl Marx(١٨١٨-١٨٨٣) كانا الأكثر تأثيرا من هؤلاء.

فى حين اعتقد هيجل بأنه وفق بين الدين مع فكرته بالعقل المطلق، أراد فيورباخ أن يرى الدين كمثال للوعى المبعد أوالمنعزل, بالنسبة لفيورباخ أراد أن يبعث شيئا من التجريبية والمادية فى فلسفته، الدين ليس وسيلة لفهم الجيست، بل هى انعكاس لطريقة بناء المجتمع.

بالنسبة لفيورباخ الرجل هو الذى يخلق الله على صورته، ومن ثم يسقط ويعبد خلقه. هذه فكرة الإنسان المثالى عن الله ، وعن طريق إزالة هذه الصفات المثالية من أنفسنا وإسقاطها على شئ دينى، نحن نقصى أو نبعد أنفسنا عن جوهرنا أو وجودنا.

ماركس أيضا مادى أراد أن يكون أكثرتطرفا من فيورباخ, فى حين أن فيورباخ رأى الدين اغتراب وبدا راضيا بترك المجتمع كما كان, أراد ماركس تطرف المجتمع؛ كما قال: **"الفلاسفة فقط فسروا العالم بطرق مختلفة, والغاية هى تغييره."**

كان هيجل ليس فقط الفيلسوف المهم بعد كانط, فقد كان آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) معاصرا لهيجل, وأصبح شوبنهاور محاضرا فى جامعة برلين وقرر تقديم محاضراته فى نفس الوقت كهيجل, كما كان هيجل الفيلسوف الأكثر شهرة فى عصره، فإنه ليس من المستغرب أن شوبنهاور اكتسب بعض الطلاب, اعتقد شوبنهاور أن الحقيقة المطلقة ليست جيست، ولكن الارادة.

كان شوبنهاور مؤثراعلى الشاب فريدريخ نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) الذى طور موضوع الإرادة, بالنسبة لنيتشه "إرادة القوة"هى القوة الدافعة الأساسية للطبيعة البشرية والفلسفة, لا يمكن أن نتخيل التحليل النفسى للقرن العشرين دون تأثير هؤلاء المفكرين العظماء.

هناك ثلاثة مواضيع متنافسة فى فلسفة القرن التاسع عشر: **المثالية، والمادية والارادة.**

جدليةهيجل Hegel's Dialectics :-

يعتقد هيجل أن الجيست تصل لتعرف نفسها من خلال تطور التاريخ, دعا هذه العملية "بالجدليةDialectical ", العملية الجدلية فيها وضع البداية (الأطروحة the thesis) تبرهن على أنها غير كافية ولذلك نلقى بمعاكسه (النقيض the antithesis). كل من هذه المواقف غير مرضية، والتقدم سوف يحدث فقط عندما الفهم الأفضل يحدث (التركيب the synthesis).

المثال غيرالهيجلى يساعدنا على فهم الجدلية, دعونا نفترض أن لديك دراجة نارية، لكن لديك فهم محدود بها, الغاية من الدراجة النارية هو تمكنك من السفر (الأطروحة), بدأت على الدراجة النارية الخاص بك فى حالة من الجهل، كل ما تعرفه هو كيفية قيادتها, عاجلا أم آجلا، سوف ينفد الوقود، والدراجة سوف تقف, أى عكس من التحرك (النقيض), ولكن فقط عندما تفهم الطريقة التى تعمل بها الدراجة النارية شاملة مفهوم إعادة التزود بالوقود (تحقق التركيب وتفهم الدراجة على مستوى أعلى) بذلك يمكنك من جعل الشىءيعمل.

الجدلية المادية لماركس Marx's Dialectical Materialism :-

أخذ ماركس من هيجل مفهوم التطور التاريخى الجدلى، بالنسبة لماركس المجتمعات هى التى تتطور بدلا من الجيست.

ماركس يؤكد أنه يريد أن يبدأ من العالم "الحقيقى" التجريبى لإنتاج فهم علمى للتاريخ ,التاريخ يتقدم من خلال عدد من الحقب، كل حقبة لها ترتيب اقتصادى معين, أمثلة على العهود تشمل الإقطاعية (الاقتصاد كونه مبنى على ملكية الأراضى) والرأسمالية (التى تتميز بالعمل المأجور ووجود رأس المال).

يعتقد ماركس أن كل عصريحتوى على تناقضات اقتصادية , على أنه لا يمكن أن تحل إلا من خلال حركة لشكل اقتصادى جديد, ففى الرأسمالية على سبيل المثال هناك أطروحة القوى المنتجة النامية (التكنولوجيا ومكان العمل الأكثر كفاءة), يعتقد ماركس أن نظام المَصنع من شأنه أن يخلق البطالة والفقر باعتباره النقيض, فقط عندما تحدث الثورة وتستبدل الرأسمالية بالاشتراكية فإنه يحدث التركيب.

مساهمة ماركس مهمة للفلسفة، وليس للنظرية الاجتماعية، فهى نظريته فى الفكر: أن الأفكار السائدة فى كل عصر تعكس النظام الاقتصادى, ففى المجتمعات الرأسمالية الليبرالية التركيز على مفهوم الحرية الفردية نظرإليها ماركس كنتيجة للسوق الحرة الاقتصادية, وأن الأفراد الذين قد تم تضليلهم بهذه الفكرة قال إن لديهم" وعى زائف".

من "الإرادة will" إلى"إرادة القوة will to power" شوبنهاور ونيتشه:-

بالنسبة لشوبنهاور الحياة نفسها هى تعبير عن القوة أوالطاقة الأساسية، دعاها "الإرادة", أما الذات فجادل بأنها هى مظهر من مظاهر "الإرادة" ,على الرغم من أن العديد من الدوافع غير معروفة لعقلنا الواعى,هذه الفكرة التى أصبحت معروفة باسم مفهوم "اللاوعى" أثرت فى علم النفس الفرويدى Freudian واليونجنى Jungian , وكثيرا ما يشار إليه بأنه فيلسوف التشاؤم لأنه يعتقد أن هذه "الإرادة" ليس لديها غرض أو هدف ؛ فهى السعى الأعمى, أفكاره متشابهة بالبوذية فى شعوره بأن الوجود ينطوى دائماعلى معاناة.

هناك ثلاث طرق يتمكن بها الإنسان من التغلب على هذه الإرادة الكونية العمياء وتحقيق الخلاص, **الأولى** هى تطوير التعاطف مع الآخرين (الخاصية التى بغرابة يفتقرإليها شوبنهاور فى حياته الخاصة)، **وثانيا** من خلال تطويرالفهم الفلسفى **وثالثا** من خلال التأمل الجمالى للأعمال الفنية,هذا هو الطريق الاخيرالأكثر تأثيرا.

بالنسبة لنيتشه "إرادة القوة" هى محرك إنسانى أساسى،على عكس شوبنهاورالذى اعتقد أن إرادة القوة هى القوة الإبداعية وأن البشر سوف تتقدم إلى مستوى جديد من الوجود.

نيتشه انتقادى للفلسفة منذ الإغريق وللمسيحية, يقول أننا يجب أن نفصل اثنين من الجوانب المهمة عن أنفسنا: إن "ديونيسوسDionysian" (الاحتفالى واللاوعى) و "أبولونى Apollonian " (الواعى والعقلانى), بينما فقط عندما الفرد الإبداعى يعبرعن أرادته للقوة تتم بتركيب هذه العناصر عندئذ يتمكن من التقدم.

نيتشه انتقادى لأى فلسفة تدعى أنها تبين لنا الحقيقة النهائية, جميع "الحقائق" لنيتشه تفسيرات للعالم يقتضيها علم الأحياء, اللغة دائما تقترب من الواقع ،من خلال اللغة إرادة القوة تجعلنا نشعر بوجودها.

- الفلسفة التحليلية Analytic Philosophy :-

تحليل شيء يعنى تقسيمه إلى الأجزاء المكونة له, الفلسفة التحليلية تحاول التوضيح، عن طريق تحليل معنى البيانات والمفاهيم, كانت الفلسفة التحليلية مهمة فى العالم الأكاديمى الناطق باللغة الإنجليزية منذ بداية القرن العشرين, بعد كانط الانشقاق حدث بين الفلسفة الأنجلو أمريكية الأكاديمية والفلسفة الممارسة فى القارة الأوروبية, الفلسفة "القارية Continental " قلعت عن الاتجاه المثالى مع هيجل، واتخذت منحى الوجودية عبر نيتشه Nietzsche وهايدجر Heidegger ودخلت مرحلة معينة أقل مع ما بعد البنائية post-structuralism .

فالفلاسفة التحليليون من ناحية أخرى رأوا الفيلسوف الألمانى جوتلوب فريجه Gottlob Frege (١٨٤٨-١٩٢٥) المفكر الأكثر أهمية منذ كانط , أراد فريجه وضع منطق صارم فى قلب الفلسفة, كان مؤثرا فى فلسفة الرياضيات ,والمنطق ,واللغة, واعتقد أن الأساس فيما يتعلق بالرياضيات يمكن بأحكام أن يشتق من المنطق وأن ذلك التحليل الدقيق للمنطق الكامن للجمل يمكننا من الفصل لمعرفة الحقيقة.

الفيلسوف البريطانى برتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) جمع بين رؤية فريجه المنطقية مع تأثير التجريبية لديفيد هيوم David Hume , يعتقد راسل أن العالم يتألف من "حقائق ذرية ". الجمل إذا كانت ذات مغزى، وجب أن تتوافق مع هذه الحقائق الذرية. درس لودفيج فتجنشتاينLudwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) تحت راسل، فى وقت مبكر أفكاره أثرت فى دائرة فيينا وساعدت على تشكيل الوضعية المنطقية logical positivism لعام ١٩٢٠ و ٣٠.

هناك قطيعة جذرية بين الأعمال المبكرة و الأخيرة لفيتجنشتاين, فى عمله الأخير رأى فيتجنشتاين أن اللغة تصوير العالم، لاحقا فى فلسفته فهم اللغة بواسطة استخدام مجازعن اللعبة. هذا التغيير فى الاتجاه حفز فى تطوير" الفلسفة اللغوية "، فى منتصف القرن العشرين, الفلاسفة اللغويون مثل جيلبرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠-١٩٧٦) اعتقدوا أنه يمكن حل العديد من المشاكل التقليدية للفلسفة من قبل الدراسة المتأنية للغة كما يتم استخدمها.

بالقرب من عام ١٩٧٠ كان هناك استياء متزايد من الفلسفة اللغوية، والفلاسفة بدأوا يظهرون المزيد من الاهتمام بفلسفة العقل وتطبيق الأساليب الفلسفية لقضايا أوسع فى السياسة والأخلاق وطبيعة الفلسفة نفسها, ريتشارد رورتى (١٩٣١) Richard Rortyاستخدم الأساليب الفلسفية التحليلية لتفكيك افتراضاته, رورتى تأثر إلى حد كبير بهايدجر Heidegger وكذلك بفيتجنشتاين ، ونهجه له صدى لأفكار ما بعد البنائية, قد يكون فى المستقبل من سيشهد العناية بتلاقى الفلسفات "التحليلية" و " القارية".

برتراند راسل: مذهب الذرية المنطقية Bertrand Russell: Logical Atomism:-

بدأ برتراند راسل Bertrand Russell(١٨٧٢-١٩٧٠) حياته المهنية الفلسفية بكونة مثالى، ولكن تم تحويله من قبل مور (١٨٧٣-١٩٥٨) إلى التجريبية الفطرية السليمة, كان يعمل مع وايتهيد Whitehead (١٨٦١-١٩٤٧) على فلسفة الرياضيات، مثل فريجه حاول أن يظهر كيفية أن الرياضيات يمكن أن تستمد من المنطق, أدى عمله فى المنطق لدراسة اللغة, واعتقد راسل أن النحو اللغة العادية مضلل, وأعتقد أن العالم متألف من حقائق ذرية، والإفتراضات إذا كانت صحيحة، فإنها تتوافق مع الحقائق الذرية, واحدة من المهام فى الفلسفة تحليل الافتراضات للكشف عن 'الشكل المنطقى الصحيح'.

يعتقد راسل أن مصطلحات مثل "الرجل المتوسط" يمكن أن تؤدى إلى الارتباك وفى الجملة: 'المرأة المتوسطة لديها٢. ٦طفل'، ينبغى أن تفهم "المرأة المتوسطة" باعتبارها بناءً منطقياً, هذا المصطلح ليس حقيقة ذرية لكن بيان مركب رياضى متعلق بأعداد الأطفال لأعداد النساء, اعتقد راسل أن مصطلحات مثل "الدولة" و "الرأى العام" كانت بنايات منطقية والفلاسفة كانوا مخطئين فى التعامل مع هذه المفاهيم على الرغم من أنها كانت موجودة حقا.

لودفيج فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein(١٨٨٩-١٩٥١): تراكتاتوس Tractatus:-

فيتجنشتاين جاء للدراسة تحت راسل فى عام ١٩١٢ وساهم فى نظرية مذهب الذرية المنطقية. وقد نشرت له "الاطروحه المنطقية الفلسفية *Tractatus Logico-Philosophicus*" فى عام ١٩٢١,وفيها فيتجنشتاين طرح نظرية الصورة للمعنى, الصورة قد تعكس الواقع من خلال إظهار الأشياء وترتيبات الأشياء, قال فيتجنشتاين أن الجمل إذا كانت تعنى أى شيء يجب أن تعكس الواقع بنفس الطريقة التى تعكسها الصورة, الجمل تحتوى على الأسماء التى تشير إلى أشياء أو حالات فى شؤون العالم, مثل راسل يعتقد فيتجنشتاين أن المظهرالخارجى لنحوالبيانات يخفى الشكل المنطقى, من خلال تحليل بيان واقعى يظهرأنه يتكون من جزيئات أولية تصورالعالم والثوابت المنطقية مثل "إذا '،' لا '،و 'و' أو '. والجملة التى لاتصورالعالم خالية من المعنى.

إذا كانت فقط البيانات التى تصور العالم بيانات عن حقائق ذات مغزى حينئذ هى بيانات عن الأخلاق والدين , والكثير من الفلسفة ليس كذلك بالمعنى الدقيق للكلمة ذا مغزى. هذا ينطبق بقدرما على أفكار فيتجنشتاين فى تركتاتوس وكذلك الأفكار الفلسفية الأخرى, كما يقول فى نهاية تركتاتوس، **" الافتراضات بمثابة توضيحات على النحو التالى: أى شخص يفهمنى فى نهاية المطاف يدرك بأنها لا معنى لها، عندما يستخدمها - باعتبارها خطوات - لتسلق أبعد منها, لذا فى الكلام يُرمى السلم بعيدا بعدما يكون قد صعد عليه. "**

دائرة فيينا: الوضعية المنطقية The Vienna Circle: Logical Positivism :-

تتألف دائرة فيينا من مجموعة من العلماء منطقيين و فلسفى التفكير. كان موريتز شليكSchlick Moritz (١٨٨٢-١٩٣٦)الزعيم الرسمى , والاعضاء أخرين تضمنوا رودولف كارناب Rudolf Carnap (١٨٩١-١٩٧٠)، أوتو نيورات Otto Neurath(١٨٨٢-١٩٤٥) وكورت جودل Kurt Gödel(١٩٠٦-١٩٧٨). وقد تأثرت الدائرة بشدة بعمل فريجه وراسل. فيتجنشتاين بالرغم أنه لم يكن عضوا فى المجموعة ناقش الفلسفة مع شليكSchlick وكارناب Carnap , المجموعة كانت نشطة من منتصف عام ١٩٢٠, ومع ذلك أجبرت المجموعة بسبب قتل شليك Schlick من قبل طالب مختل فى عام ١٩٣٦ والعداء المتزايد من النازيين الدائرة للتفريق.

الوضعية المنطقية التى مارستها الدائرة نظر إليهاعلى أنها تطورلتركتاتوسTractatus لفتجنشتاين, فقط البيانات التى يمكن التحقق منها هى ذات معنى، كما وضعها شليك: **"معنى الافتراض هو أسلوب التحقق من الحقيقة "**. كان أى شىء لا يمكن التحقق منه تجريبيا بلا معنى, وكانت البيانات عن الله والأخلاق والفن والميتافيزيقا للدائرة، حرفيا هراء, و التركيزعلى الوضعية كان كرد فعل ضد الرومانسية المثالية التى كانت مؤثرة فى الفلسفة الألمانية, فدورالفلسفة لم يعد لوضع مخطط للوعى الذاتى بجيست Geist, بل كان ينظرإليها على أنها خادمة للعلم , ببساطة محتوى لتوضيح المفاهيم.

ريتشارد رورتيRichard Rorty : الفلسفة ومرآة الطبيعة:-

ريتشارد رورتى (١٩٣١ -) هو الفيلسوف الأمريكى الذى تدرب على التقليد التحليلى, وخلافا للعديد من معاصريه تأثر إلى حد كبير بسارتر وهايدجر كما فيتجنشتاين, رورتى كان قادرا على التعبير عن اهتمامات ما بعد الحداثة ل"الفلسفة القارية" فى لعبة اللغة من الأوساط الأكاديمية الأمريكية البريطانية. رورتى يقول إنه منذ ديكارت "اكتشاف العقل" وقد حاولت الفلسفة لتوفيرالأسس الصخرية الصلبة لفهمنا للعالم. واعتقد كانط أنه يمكن تفسير العالم من خلال فئات خالدة شاملة, فالتمييز يتم بين العقل غيرالطبيعى المنعكس وبين العالم الطبيعى المنعكس. فالغرض من الفلسفة الكشف عن شكل هذا الانعكاس.

وفيما يتعلق بفهم الإنسان لرورتى فهو لا يقوم على البناء الموضوعى للعقل, على الأصح بأننا نفسر العالم من خلال مجموعة متنوعة من النماذج إذا لم يكن هناك وجهة نظر موضوعية للفلسفية ؛ فمن ثم الفكرة بأن الفلسفة ينظر إليها "كملكة العلوم" موضحة ما يعتبر كمعرفة هى غير مستدامة, بالنسبة لرورتى ينبغى أن يكون الهدف للفلاسفة هو **"مساعدة القراء أو المجتمع ككل للتخلص من المفردات البالية والمواقف، بدلا من توفيرأسس للحدس وتقاليد للوقت الحاضر."**

- الوجودية Existentialism:-

بدأت جذور الوجودية مع كيركيجاردKierkegaard فى النصف الأول من القرن التاسع عشر, كان أنتقاديا لنظام هيجل الفلسفى الذى حلل الوجود بطريقة مجردة وغير شخصية, وأهتم كيركيجارد بالخبرة الشخصية للأفراد ما هو عليه فى الوجود كإنسان. بالنسبة لكيركيجارد الفرد باستمرارعليه الاختيار ما هو ليصبح عليه دون اللجوء إلى ما توصل إليه العلم والفلسفة. كيركيجارد يعتقد أن الفرد يمكن أن يختارالعقيدة الدينية فى مواجهة العالم السخيف.

إدموند هسرلEdmund Husserl:-

كان الألمانى ادموند هسرل عالم ظواهرphenomenologist [1]، (١٨٥٩- ١٩٣٨) مؤثرا فى تطوير الأساليب التى استخدمت لاحقا من قبل الوجوديين, عالم الظواهرمهتم بالأشياء كما تظهر فى الوعى، وليس الأشياء فى ذاتها ,استمرهذا التركيز على الوعى الذاتى للأفراد فى القرن العشرين كوجودية متقدمة.

مارتن هايدجرMartin Heidegger :-

درس مارتن هايدجر (١٨٨٩-١٩٧٦) تحت هسرل, كان هايدجر مهتما فى "مسألة الوجود". اعتقد أن الفلسفة الغربية أكثرمن مهووسة بمشكلة المعرفة, بالنسبة لهايدجرالفرد بكونه وجود فى العالم يتميز بالعمل والقلق: فمعرفة العالم ليس طريقنا الأساسى لكوننا فى العالم.

---

[1] phenomenology الحركة التى أسسها هسرل التى تركز على وصف مفصل للتجربة الواعية، دون اللجوء إلى تفسير ،وافتراضات ميتافيزيقية، والأسئلة الفلسفية التقليدية .
http://www.thefreedictionary.com/phenomenology

فى أعماله اللاحقة، أصبح هايدجر أكثر اهتماما بتاريخ المفاهيم فى اللغة, واعتبر تحقيقاته على أنها محاولة للكشف عن طبيعة الوجود الخفية . كان سؤاله الأكثر جوهرية: لماذا يجب أن يكون هناك وجود على الأطلاق، عندما يمكن أن يكون هناك لاشيء؟ على الرغم من أن هيدجر ادعى أنه لم يكن "وجوديا"، إلا أن تأثيره على سارتر والحركة الوجودية لا يمكن إنكارها.

جان بول سارترJean Paul Sartre :-

جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) هو ربما الأكثر شهرة كوجودى, وكان كاتبا مسرحيا وروائيا موهوبا عرض عليه جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦٤، لكنه رفضها, اعتقد سارتر أنه لا يوجد طبيعة إنسانية أو جوهر ثابت ولذلك على الفرد أن يختاروجوده/وجودها, هذا الاختيار يحمل معه المسؤولية, أولئك الذين لا يختارون، ولكن يبنون أساس حياتهم على ترتيب مسبق لنظم أخلاقية وفلسفية قال أنهم يتصرفون بسوءاعتقاد.

سارتر: "الوجود يسبق الجوهر" Sartre: Existence precedes Essence:-

كان جان بول سارترJean Paul Sartre واحدا من زعماء ما بعد الحرب الفرنسية للحركة الفكرية اليسارية الجناح، شارك مع موريس مرلو بونتى Maurice Merleau-Ponty (١٩٠٨-١٩٦١) فى تأسيس مجلة "العصور الحديثة *Les Temps Modernes*", تجاربه كمقاتل مقاوم شكلت فلسفته التى تأثرت بأفكار هسرل وهايدجر, سارتر ادعى سياسيا أنه ماركسى واعتقد أن الحرية لها كل من البعدين السياسى والفردى.

على عكس كيركيجارد كان سارتر ملحدا, الله غير موجود لا يوجد " ماهيات essences ". من حيث الجوهر، سارتر يتحدث عن توضيح مسبق للطبيعة الإنسانية, ما قصده سارتر من عبارة "الوجود يسبق الجوهر" هو: إذا لم يكن هناك مصمم كونى، فلا يوجد تصميم أو جوهر للطبيعة البشرية, الوجود الإنسانى أوالوجود يختلف عن وجود الأشياء فى الإنسان وهى النفس الواعية, هذا الوعى الذاتى أيضا يعطى الموضوع الإنسانى الفرصة لتحديد نفسه, فالفرد يخلق بنفسه/ بنفسها عن طريق صنع خيارات بتوجية ذاتى.

الوجود الإنسانى كالوعى الذاتى بدون تحديد مسبق، فنحن ككائنات مستقلة -"حكم علينا أن نكون أحراراً"- مضطرون لصنع خيارات مستقبلية موجهة, هذه الخيارات تحث على القلق وعدم اليقين فى نفوسنا. إذا كنا كأفراد،نتبع ببساطة التوقعات العرفية أو الاجتماعية من أجل الهروب من هذا القلق، فقد نجينا من مسؤولية اتخاذ خياراتنا الخاصة بنا، وفى خلق جوهرنا. لقد تصرفنا عن سوء اعتقاد.

للعمل بشكل حقيقى يجب علينا تحمل مسؤولية مستقبلنا, لا يمكننا اختيار ما نوع الجنس والطبقة، أو البلد التى ولدنا فيها، ولكن يمكننا أن نختارما نصنع معهم , نحن أحرار فى إنشاء التفسير الخاص بأنفسنا بعلاقتنا بالعالم، لإنشاء مشروع من الاحتمالات، من الأعمال الحقيقية كتعبير عن الحرية.[1]

ألبيرت كامسAlbert Camus :-

كان ألبيرت كامس (١٩١٣-١٩٦٠) - هو صحفى وروائى وفيلسوف - يعتقد أن الحياة كانت أساسا سخيفة ؛ حيث إن العالم الحديث مليء بالظلم، والملايين يعملون فى وظائف استغلالية متكررة, يعتقد كامس أنه ينبغى علينا التمرد على هذه السخافات برفض المشاركة فيها.

فالوجودية فى القرن العشرين تعكس فقدان اليقين فى عالم ما بعد الحداثة, إذا لم يكن هناك إجابات واضحة عن السؤال الفلسفى للوجود،فمن ثم كل فرد عليه أن يصمم حياته الخاصة كمشروع, واختيار ومسؤولية المشروع تقع تماما عليه.

كيركيجاردSøren Kierkegaard : المتجول المنعزلThe solitary wanderer :-

قضى سورين كيركيجارد حياة رائعة ولكن مضطربة, وأدرك والده نضجه الفكرى المبكرالذى ثقفه قبل انتقاله إلى جامعة كوبنهاجن حيث درس لمدة ١٠ عاما.

عندما كان شابا بدأ كيركيجارد يشعر بأنه سيكون دائما "غريبا", فى عام ١٨٣٧ سقط فى الحب مع صاحبة الأربع عشرة سنة ريجين أولسون التى قام بخطبتها , ولكن بعد الاضطرابات الداخلية فك الخطبة، على قناعة بأن مصيره هو أن يكون "مستثنى"، ومتجولا وحيدا.

يعتقد كيركيجارد أن الفلاسفة الذين زعموا أن الفلسفة يمكن أن تبين لنا الطبيعة النهائية للروح واهمون, ادعى هيجل أنه تغلب على التناقض، ولكن كيركيجارد لم يكن مقتنعا. الوجود بالنسبة لكيركيجارد كان متناقضا. يجب على الفرد إيجاد طريقه/

---

[1] http://www.philosopher.org.uk/

طريقها الروحى، ليس من خلال الطقوس العقائدية المريحة للكنيسة المنشأة أو الوضوح الزائف للجدلية الهيجلية، ولكن من خلال العمل، العمل الذى عن قناعة دينية مدركة.

كيركيجارد تمسك بأن الإيمان الدينى مركزى بالنسبة إلى الوجود الحقيقى, وأستمرت وجوديته المسيحية لتكون مؤثرة, وكان على علماء الدين مواجهة السخافات المروعة لقرن العشرين و الوجودية الدينية (أوالتوحيدية) التى تبين كيف بإمكان الفرد، بالإيمان أن يكون أصيلا فى عالم غير مؤكد.

فلسفات القرن التاسع عشر الميلاد

أولا :الاتجاه العام للفلسفة الغربية الحديثة وتطورها.

تنتمى الفلسفة الغربية الحديثة أى الفكر الفلسفى فى الغرب فى المدة الممتدة من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩٠٠ ميلادية , بأسرها إلى التاريخ , فهى قد دخلت فى نطاق الماضى .

لقد ولدت الفلسفة الأوربية الحديثة , كما هو معروف , من انهيار الفكر المدرسى فى العصر الأوربى الوسيط وقد ميز الفكر المدرسى الوسيط [١]. بعدة سمات , هى قوله **بالمذهب التعددى** (أى قبوله لوجود وحدات وجودية أو موجودات متعددة وبدرجات مختلفة (أى قبوله لوجود وحدات وجودية أو موجودات متعددة وبدرجات مختلفة من الوجود) , وأخذه **بالاتجاه الشخصانى** (أى الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية للشخص على ما عداها) , وتصوره **العضوى للوجود** [٢] , كل ذلك إلى جانب اتجاهه الأساسى المتمثل فى **مركزية الإله** (أى أن الإله هو مركز الكون) حيث قال بالإله الخالق للموجودات.

ومن ناحية المنهج الذى اعتمدته الفلسفة المدرسية الوسيطة , فإنها أخذت بطريقة التحليل المنطقى المفضل للمشكلات الجزئية.

فجاءت الفلسفة الغربية الحديثة وعارضت كل هذه السمات وكل تلك القضايا. ذلك أن مبادئها الجوهرية هى القول بالاتجاه الميكانيكى[٣] , الذى يستبعد التصور العضوى والتدرجى للوجود , وبالاتجاه الذاتى , الذى يجعل الإنسان مستقلا عن الإله ويحول اتجاه اهتمامه ناحية إلى ذات. ومن حيث المنهج , فإن الفلسفة الحديثة , قامت بنبذ المنطق الصورى. كما تميزت , وإن تكن هناك استثناءات هامة , ببناء نظم فلسفية شامخة لا تعتمده منهج التحليل[٤].

وقد كان من نصيب الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) أن يكون أول من وضع هذه الثورة الفكرية فى قالبها الأكمل. ذلك أن ديكارت "ميكانيكى " أولا (أى يأخذ بالمذهب الميكانيكى) , فهو إذا كان يقول بوجود درجتين من الوجود: العقل والمادة , إلا أنه يرى أن الحقيقة غير العقلية تختزل بأسرها , أى تعود , إلى مفاهيم ميكانيكية خالصة (الوضع, والحركة, والدفع) , كما أن كل حدث يمكن تفسيره عن طريق قوانين ميكانيكية حسابية.

وفى نفس الوقت الذى يأخذ فيه ديكارت بالنزعة الميكانيكية ,فإنه يعتمد الاتجاه الذاتى[٥],حيث أن الواقعة الأساسية ونقطة البدء الضرورية للفلسفة فى نظره , إنما هى الفكر. أضف إلى هذا وذاك أن ديكارت يأخذ بالمذهب الإسمى: فليس هناك عنده (فى عملية معرفة العالم الخارجى) من إدراك حدسى بالعقل , وإنما هناك وحسب إدراك حسى للجزئيات. أخيرا فإن ديكارت كان خصما عنيفا للمنطق الصورى : فهو لا يعرف بالمعنى الحرفى للكلمة أى منهج يكون خاصا بالفلسفة, ويرى أن تطبق على كافة مجالات المعرفة طرائق العلوم الرياضية فى دراستها للطبيعة ,وإن لم يفحص ديكارت هذه الطرائق الرياضية فحصا فلسفيا .

وإذا ما قبل المرء هذه المبادئ فإنه يجد نفسه وقد قامت أمامه مشكلات لا حل لها: فإذا كان العالم مجرد تجمع من الذرات , وتكوينه يقارن بتكوين الآلة , فكيف نفسر وجود عناصر روحية فيه؟. ومن ناحية أخرى , كيف نستطيع الوصول إلى حقيقة هذا العالم ابتداء من الفكر الذى هو المعطى المباشر الوحيد لنا؟. وأخطر من هذا وذاك ,فإن السؤال الأهم هو: كيف تكون المعرفة ممكنة إذا كنا لا نعرف إلا الجزئيات , بينما تطبق المعرفة على تلك الجزئيات دائما مفاهيم كلية وقوانين عامة؟

---

[١] تبدأ الفلسفة الغربية الحديثة مع كل من بيكون وديكارت , ويختار لبدئها تاريخ اصطلاحى هو عام ١٦٠٠ م. , أى بداية القرن السابع عشر الميلادى. ويفصل بين الفلسفة الغربية الحديثة والفلسفة المدرسية عصر هام هو عصر النهضة (١٤٥٠ - ١٦٠٠ م) , وفيه أخذت فلسفة القرون الوسطى المسيحية تتلقى الضربات الشديدة حتى انهارت مع نهايته. وتمت الفلسفة المدرسية , أو"الاسكولائية " أحيانا , من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر الميلادى. وسميت كذلك على يد مفكرى عصر النهضة لأنها كانت تعلم وتتعلم فى "مدارس ", وكانت المدارس تحت سيطرة الكنيسة , التى كانت تأخذ بفلسفة أرسطو. وأهم سمة للفلسفة المدرسية منهجها الذى يهتم بالتعريفات والأقيسة المنطقية إلى درجة المماحكات اللفظية. ومن نافلة القول أن ذلك التيار الفلسفى اعتمد على سلطة أرسطو الفلسفية , ابتداء من حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى , بعد أن جعلتها كتابات القديس توما الأكوينى (١٢٢٤ / ٥- ١٢٧٤ م.) على توافق معقول مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

[٢] أى القول بأن الوجود كله مترابط الأوصال , كأنه جسم واحد , له أعلى وأوسط وأسفل , وأفضل وأسوأ , والأعلى والأفضل هو الألوهية رأس الكون وعقله , والأسفل , الأسوأ هو المادة , وبينهما يقف الإنسان متوسطا رابطا الطرفين , فهو "عالم مصغر" صورة للعالم الكبير.

[٣] يقال الميكانيكى تشبيها للعالم بالآلة التى تسير وحدها بغير تدخل من عقل أو توجيه. ويقصد بالاتجاه الميكانيكى القول بأن أحداث العالم لا ترتبط فيما بينها إلا برباط العلية (أو السببية) وأن الحركة هى الظاهرة العامة فى الطبيعة , ولها قوانينها الخاصة. والميكانيكية تقابل النزعة العضوية الحيوية من جهة , وتقابل النزعة الديناميكية التى تقول بالتفاعل بين القوى تفاعلا متبادلا, بينما الميكانيكية تركز على الانفصال بين الأشياء وتفصل ما بين المادة والقوة وترى كل الأحداث نتائج للحركة لا للقوى المتفاعلة.

[٤] لاحظ أن كل هذه الخصائص تقابل واحدة بواحدة ,على وجه التقريب ,خصائص الفلسفة المدرسية المذكورة , سمات ومنهجاً.

[٥] ما يسميه المؤلف هنا الاتجاه الذاتى هو الذى قد يسمى أحيانا "المثالية " إذا اقترن مع الأخذ بالمذهب العقلى. ولكن يبدو أن المؤلف يستخدم هذا الاصطلاح استخداما مخصوصاً ,ويحدده فى الجملة التالية فى النص.

وقد قدم ديكارت نفسه حلا لهذه المشكلة الأخيرة بافتراض وجود أفكار فطرية , ووجود موازاة بين قوانين الفكر وقوانين الوجود [1]. فقد أفسح له "الكوجيتو" [2] الطريق للانتقال من الفكر إلى الواقع , بحيث أقام ديكارت بين العقل والمادة علاقة العلة والمعلول . وقد أخذ عدد من المفكرين, الذين يسمون خطأ "بالعقليين" , بنظرية الأفكار الفطرية. وأهمهم : اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧ م), وليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) وفولف (١٦٧٩ -١٧٥٤ م) وقامت مجموعة أخرى, هى مجموعة الفلاسفة التجريبيين الإنجليز , بالاتجاه فى طريق يبدو أكثر منطقية من طريق الآخرين: فهم يقبلون بالمذهب الميكانيكى , وهو ما يتفق مع اتجاههم التجريبى , ويوسعون من تطبيقه ليشمل العقل نفسه , ويقولون بالاتجاه الذاتى وبالاتجاه الاسمى المتطرف [3].

وقد وجدت هذه الأفكار على نحو غير واضح عند فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) ولكن الذين وضعوها فى عرض منظم هم جون لوك (١٦٣٢-١٧٥٤م) وجورج باركلى (١٦٨٥- ١٧٥٣ م) وعلى الأخص ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) . ويرى هذا الأخير أن النفس ما هى إلا حزمة من الصور , هى التى نسميها " أفكارا ". هذه الأفكار هى وحدها التى يمكن أن تعرف معرفة مباشرة , أما القوانين العامة فهى ليست إلا نتاجا للقدرة على الارتباط التى تظهر بفضل العادة [4] , وبالتالى فليس لتلك القوانين العامة أية قيمة موضوعية.

وهكذا فإن هيوم يرى أن محض وجود عالم حقيقى لا يقوم إلا على الاعتقاد [5] , ولا يحمى هيوم من الشك المطلق إلا أخذه بمذهب الاعتماد على الإيمان. وفيما عدا هذا , فإنه يشك فى كل شىء: فى العقل, فى الحقيقة , وفى المعرفة على الأخص. فى نفس هذا الوقت , أدى تقدم العلوم الطبيعية إلى ميلاد التصور المادى للكون , الذى تطور واتسع طا لما لم يجد أمامه أية فلسفة معارضة تقاومه. وهكذا فإن المذهب المادى , الذى بشر به توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) من قبل , ازدهر فى فلسفات بونيه (١٧٢٠ - ١٧٩٣ م) ولامترى (١٧٠٩ - ١٧٥١ م) وهولباخ(١٧٢٣ - ١٧٨٩ م) وديدرو (١٧١٣ -١٧٨٤ م) وهلفتيوس (١٧١٥ - ١٧٧١ م) [6].

ثانيا: الفيلسوف الألمانى كانت:-

فى هذا الإطار الباعث على اليأس , والذى كان كارثة على العقل ,ظهر الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) "Kant", الذى أخذعلى نفسه إنقاذ العقل والعلم والأخلاق والدين , بدون أن يتنكر فى نفس الوقت لأى من المبادئ الأساسية للفكر الأوربى الحديث. فهو يقبل المذهب الميكانيكى كما هو وعلى علاته , وعنده أنه يحكم العالم التجريبى وأحداثه ,بما فى ذلك الفكر الذاتى [7] .ولكن كانت يرى أن هذا العالم التجريبى هو نتاج تركيب قامت به الذات الترانسندنتالية (المتعالية transcendental) معتمدة على كم هائل , ينقصه التنظيم , من الاحساسات.وهكذا فإن قوانين المنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية تحكم العالم التجريبى وأحداثه , لا لشىء إلا لأن العقل يُدخلها فى ذلك العالم. وفى نفس الوقت فإن العقل لا يخضع هو نفسه لهذه القوانين , لأن العقل لا يأتى من العالم الحسى , بل هو بالأحرى مشرّع له , وهو منبع القوانين التى تحكمه.هكذا ينقذ كانت , وبضربة واحدة , العلم والعقل. ولكن فى ظل هذه الشروط تصبح معرفة "الشىء فى ذاته " [8], أى معرفة الحقيقة الموجودة فى ذاتها والتى تتعدى الاحساسات, تصبح غير ممكنة: ذلك أن المعرفة تنحصر فى نطاق الحدس الحسى, وبدون الاحساسات فإن مقولات العقل فارغة [9].

وينتج عن هذا أن المشكلات الكبرى للوجود والحياة الإنسانية لا حل لها. فعلى مستوى المعرفة يستحيل إقامة علم للميتافيزيقا. وصحيح أن كانت قد تصدى من بعد مشكلات وجود الإله وخلود النفس والحرية [10], وهى عنده مشكلات الفلسفة الثلاثة

---

[1] وهو ما يحل مشكلة الثانية الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع.

[2] الكوجيتو هو مبدأ ديكارت الشهير« :أنا أفكر إذن أنا موجود».

[3] الاتجاه الاسمى المتطرف هو القول بأنه لا وجود للكليات على أى وجه , وإنما كل شىء فى العقل مجرد أسماء اصطلح عليها.

[4] العادة أى تكرار التجربة , فيتحقق الربط بين شيئين.

[5] أى لايمكن البرهنة عليه عقليا ,لأنه من المستحيل الانتقال مما فى الذهن إلى الواقع.

[6] الأول إنجليزى ,والرابع ألمانى عاش فى فرنسا وكتب بالفرنسية ,والثالث والخامس أهم أعضاء مجموعة الأنسكلوبيديين (الموسوعين) الفرنسية. أما المذهب المادى فإن أساسه أنه لايوجد فى الكون غير المادة ,على ضد ديكارت الذى رأى أن هناك المادة وفوقها العقل.

[7] الذاتى هنا يعنى الأفكار النفسية للفرد المحدد.

[8] noumenon (فى فلسفة كانط) شىء كما هو فى حد ذاته، لا ينظر اليه أو يفسر، وغير قابل لأن يكون معروف، ولكن يستدل عليه فقط من طبيعة التجربة, فهوموضوع حدس فكرى بحت. http://www.thefreedictionary.com/noumenon

[9] أى فارغة من المادة التى هى المدركات الحسية. وهناك قول مشهور لكانت: "العقل بغيرالحس فارغ, والحس بغير العقل أعمى."

[10] تصدى لها فى نطاق فلسفة الأخلاق لا فى إطار نظرية المعرفة.

الكبرى , ولكنه قدم حلولا لهذه المشكلات بالاعتماد على أدوات غير عقلية , فهى تصبح عنده "مسلمات " للإرادة [١]. يظهر ما سبق أن الفلسفة الكانتية تتركب من العنصرين الجوهريين للفلسفة الغربية الحديثة , أى **الاتجاه الميكانيكى والاتجاه الذاتى**[٢].

وتقوم فلسفة كانت على موقف تصورى [٣]متطرف: فالذات الترانسندنتالية , باعتبارها مبدأ منظما , هى التى تخلق المضمون العقلى.أى الذى يمكن إدراكه بالعقل , للعالم , وهذا المضمون يختزل فى النهاية إلى عدد من العلاقات , لا أكثر.

وهكذا تنقسم الحقيقة إلى ميدانين : **العالم التجريبى أو عالم الظواهر** ,الذى يخضع كله تمام الخضوع لقوانين الميكانيكا , **وعالم الوجود فى ذاته** ,**أو "النومين noumenon "**, الذى لا قدرة لنا على معرفته معرفة عقلية.

لقد كان من نصيب كانت أن يضع الفكر الغربى الحديث فى صورته الأقوى وفى تعبيره الأكمل , ولكنه وضعه فى نفس الوقت على قضبان طريق محتوم[٤]. ومهما قال المؤرخون فى حق تأثير الفلسفة الكانتية على التطورات اللاحقة للفلسفة الغربية , فإنهم لن يوفونها حقها كاملاً. فهى تسيطر على القرن التاسع عشر الميلادى , ورغم ظهور اتجاه مضاد لاتجاهها فى نهاية ذلك القرن , إلا أن بعض المفكرين سيستمرون فى القرن العشرين الميلادى فى الخضوع لسلطانها.وهى أيضا تقف موقع المنبع من تيارات الفكر الكبرى فى القرن التاسع عشر الميلادى فى الحضارة الغربية. ذلك أن كانت , حين نازع فى إمكان قيام أية ميتافيزيقا على أساس عقلى , **لم يترك أمام المعرفة إلا واحدا من طريقين : إما أن تدرك العالم مناهج العلم , وفى هذه الحالة سوف تنكمش الفلسفة لتصبح تركيبا من النتائج المتنوعة التى توصلت إليها العلوم المختلفة ,وإما أن تدرس الخطوات التى بها يتكون الواقع ابتداء من مبادئ العقل المنظمة , وفى هذه الحالة تصبح الفلسفة تحليلا لتكوّن الأفكار وأصلها وصيرورتها.**

والواقع أن أعظم تيارين فى القرن التاسع عشر الميلادى ماهما إلا تطوير لهاتين الإمكانيتين: فالمذهب الوضعى والمذهب المادى يختزلان دور الفلسفة إلى مهمة تجميع نتائج العلوم , بينما يتجه المذهب المثالى إلى تكوين نظم فلسفية يحاول فيها تفسير العالم على أنه نتاج لحركة الفكر.

ثالثا: الرومانتيكية:-

تدخل عامل آخر لتوجيه تطور الفكر الأوربى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى , وقدر لهذا العامل أن يكون ذا دور مؤثر من بعد: ذلك هوالمذهب الرومانتيكى [٥]. والحركة الرومانتيكية حركة شاملة , ومن الصعب على المؤرخ أن يعرفها تعريفا محددا. ولكن يمكن أن نقول , بدون أن نذهب فى التبسيط مذهبا بعيدا , إن الاتجاه الرومانتيكى هو فى جوهره تمجيد للحياة وللنفس , ويفسر ظهوره على أنه رد فعل قوى مضاد للمذاهب الميكانيكية. وكان الفيلسوف الألمانى كانت قد حاول إزالة آثار هذه المذاهب بطرائق عقلية , وبقيت طريقة أخرى : هى عدم الاعتماد على العقل. وكان من الطبيعى أن يرتفع الاعتراض على العلم العقلى من جانب شعراء وفنانين وكتاب أزعجهم عقم الوصف العلمى للعالم , فعارضوا العلم بالعاطفة وبالحياة وبالدين , معلنين أن هناك طرقا أخرى غير طرق العلم للوصول إلى الحقيقة .

ولكن المذهب الرومانتيكى ليس دائما مذهبا لا عقليا , بل أنه يظهر أحيانا مدافعا مخلصا عن العقل. ولكن الذى يؤكد عليه دائما هو الاندفاع المتحمس والحياة والتطور. وكانت فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين قد دافعت عن تصور سكونى للعالم , وكان المذهب الميكانيكى يرى أن آلة العالم قد أرسيت قواعدها مرة واحدة وإلى الأبد , وأنها مجموعة هائلة من التروس لا يفقد منها شىء , ولكن لا يخلق فيها شىء أيضا. فجاءت الحركة الرومانتيكية وهاجمت بكل عزمها وطاقتها تلك الصورة عن العالم , وبفضل صيحتها هذه احتفظت لنفسها بتأثير عظيم جدا على مدى القرن التاسع عشر كله فى الحضارة الغربية.

---

[١] اعتبر كانت أنه لا قيام للسلوك الأخلاقى بدون المسؤولية والثواب والعقاب ,وهذا كله يفترض قيام الحرية ووجود النفس التى تختار ووجود الإله الذى يجازى. وهكذا فإن لم يمكن البرهنة عقليا على وجود الإله , فإن هذا الوجود ,مع ذلك ,ضرورة أخلاقية. ويقصد كانت بالمسلمات قضايا نظرية غير مبرهن عليها فى ذاتها ,ولكنها مرتبطة لقوانين أخلاقية صحيحة.

[٢] الاتجاه الذاتى هنا هو الذى يسمى مثاليا , أى القول بأولوية العقل والفكر على المادة.

[٣] Conceptualismوتقال التصورية هنا على مذهب كانت بصفة خاصة لأنه رفض الاتجاه العقلى والاتجاه التجريبى معا ,وقال بمشاركة العقل والحس معا فى عملية المعرفة ,التى تنتهى نظريتها إلى وجود تصورات فى الذهن أصلها حسى , ولكنها تمتاز بالموضوعية والعمومية.

[٤] ربما يقصد المؤلف طريق النزعة الذاتية الضيقة.

[٥] يقال "رومانتيكى" فى الاستخدام العادى بالعربية للموغل فى الخيال ,وليس هذا الاستخدام ببعيد عن المعنى الأصلى. والرومانتيكية فى أصلها بدأت مع أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادى وسيطرت عليه ,وهى حركة أدبية أولا ,ولكنها ظهرت كذلك فى ميادين الفن الأخرى. ويقال "الرومانتيكية الفلسفية " على رد الفعل الفلسفى فى ألمانيا خاصة ضد تيارات القرن الثامن عشر الميلادى الآخذة بالعقل والعقل وحده وضد حركة "التنوير" على الأخص ,بما أشار إلى وجود قوى أخرى للإنسان غير العقل ,أهمها العاطفة والحدس المرتبطان بالحياة وباللانهائى.

رابعا: التيارات الرئيسية:-

من أهم سمات القرن التاسع عشر الميلادى الاتجاه القوى نحو بناء نظم فلسفية : فالتركيب يعلو شأنه على التحليل.

وقد ظهر هذا الاتجاه فى بداية تلك الفترة فى المثالية الألمانية بوجه خاص. وكانت قد أكد على الوظيفة الخلاقة للعقل , فتوسع تطبيق هذه الفكرة ومزجت مع فكرة الرومانتيكية عن الفكر الذى هو فى صيرورة دائمة. من هذا المزج خرجت مذاهب الفلاسفة الألمان فشته (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) وشلنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤ م) وعلى الأخص هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م).

وقد تصور هيجل الحقيقة الوجودية على أنها نمو جدلى للعقل المطلق الذى يصل دائما إلى تركيبات جديدة ابتداء من مفهومى القضية ونقيض القضية. وفلسفة هيجل تقدم مذهبا عقليا شاملا, ولكنها فى نفس الوقت رومانتيكية جدا بسبب طابعها الديناميكى والتطورى.

وقد حلّت عدة مذاهب متأثرة بالعلم محل المثالية الألمانية بعد هيجل. ولنذكر أولا المادية الألمانية عند فويرباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) ومولیشُط (١٨٢٢ -١٨٩٣ م) وبوخنر (١٨٢٤ - ١٨٩٩ م) وكارل فوجت (١٨١٧ - ١٨٩٥ م) وقد نفت مذاهبهم وجود العقل ذاته ودافعت عن الحتمية الشاملة [١].

ولنذكر بعد ذلك الفلسفة الوضعية التى أسسها فى فرنسا أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) , ويتبعه جون استيوارت , مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) فى إنجلترا , وأرنست لاس (١٨٣٧ - ١٨٨٥ م) ويودل (١٨٤٨ - ١٩١٤ م) فى ألمانيا. وقد رأى هؤلاء جميعا أن الفلسفة ليست إلا تجميعا لنتائج العلم , العلم مأخوذا بالمعنى الميكانيكى. وقد تأيد هذان الاتجاهان , المادى والوضعى , تأييدا عظيما بمذهب تشالرز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) , العالم الإنجليزى الذى فسر تطور أنواع الكائنات الحية تفسيرا ميكانيكيا بحتا [٢] , وذلك فى كتابه الشهير فى أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعى (الصادر عام ١٨٥٩ م).

وهكذا استقرت فكرة التطور الرومانتيكية والهيجلية على أساس علمى , وفى نفس الوقت فإنها أصبحت تفسرتفسيرا ميكانيكيا. فصارت فكرة التطور مذهبا شاملا عاما , وأدت إلى ظهور المذهب التطورى الواحدى الذى دافع عنه على الخصوص توماس هنرى هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥ م) , وهربرت اسبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) , بينما نشره بين مختلف طبقات القراء الألمانى إرنست هيكّل (١٨٣٤ - ١٩١٩ م).

وكان يظهر للناس فى الأعوام ١٨٥٠ - ١٨٧٠ م وكأن الاتجاه التطورى الميكانيكى , والمادى كذلك فى معظم الأحيان , سوف يستمر فى السيادة على الأفكار فى أوربا. ولكن هاهى العودة إلى المثالية تعود إلى الظهور حول عام ١٨٧٠ م. , فى إنجلترا أولا مع توماس هيل جرين (١٨٣٦ - ١٨٨٢ م) وإدوارد كيرد (١٨٣٥ - ١٩٠٨ م.) , وتبعتهما هناك مدرسة هامة, ثم فى ألمانيا بعد ذلك مع المدرسة الكانتية الجديدة [٣]ممثلة فى ليبمان (١٨٤٠ - ١٩١٢ م) وفولكلت (١٨٤٨ - ١٩٣٠ م.), ومدرستى جامعتى ماربورج وبادى اللتين أقامتا مركزين منظمين للدراسة. أما فى فرنسا , فقد درّس رينوفييه (١٨١٥ - ١٩٠٣ م) مذهبا فى النقدية الجديدة , ومن المثاليين الفرنسيين المهمين كذلك هاملان (١٨٥٦ -١٩٠٧ م). ولكن المذهب المثالى لم يستطع أن يفرض نفسه بالكلية على العقول , حيث استمرت اتجاهات وضعية وتطورية قوية تعبر عن نفسها جنبا إلى جنب مع المذهب المثالى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى.

وهكذا يمكن أن نحدد ثلاثة مراحل لتطور الفكر الأوربى فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى , وهى : **المثالية** ثم **مذهب التطور على الطريقة العلمية** ثم **تعايش التيارين معا**. ورغم تعارض المثالية ومذهب التطور العلمى , إلا أن الحركتين تشتركان معا فى خصائص جوهرية , وهى:

- **الاتجاه نحو بناء النظم الفلسفية** ,
- **اتجاه عقلى واضح إزاء العالم التجريبى** ,
- **رفض النفاذ إلى العالم الذى يعلو الظواهر , أو أيضاً نفى وجود مثل ذلك العالم ,**
- **وأخيرا الاتجاه الواحدى , الذى يذيب الشخص الإنسانى إما فى المطلق أو فى تيار التطور الكلى.**

وهكذا فإن الاتجاه العقلانى والانحصار فى عالم الظواهر والقول بالتطور والواحدية اللاشخصية وبناء النظم الفلسفية , كل هذا هو ما يشكل إلى حد كبير هيئة الفكر فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى فى الحضارة الغربية.

---

[١] Determinism مبدأ يفيد عموم القوانين الطبيعية وثبوتها, فلا تخلف ولا مصادفة. ويقوم على مجموعة الشرائط الضرورية لتحديد ظاهرة ما ,فكل شىء فى الوجود يرد إلى العلة والمعلول ,وعلى هذا المبدأ يعتمد الاستقرار فى العلوم الطبيعية. وهذه الحتمية الصارمة التى تحكمت فى التفكير العلمى فى القرن التاسع عشر اهتزت وتزعزعت فى القرن العشرين. وقد تمتد هذه الحتمية إلى الظواهر الإنسانية , فتخضعها لظروف وعوامل سيكولوجية وطبيعية , وتتعارض مع حرية الإرادة وتختلف الحتمية عن الجبرية التى تخضع الطبيعة لقوى خارجة عنها (هى الألوهية عادة) ,فى حين أن الحتمية تعتمد على ضرورة كامنة فى الطبيعة ذاتها (المعجم الفلسفى « لمجمع اللغة العربية , ص ٦٧). والجبرية (Fatalism) هى مذهب من يرون أن كل شىء يتم على نحو لا مرد له , فلا تستطيع قدرة الإنسان ولا إرادته أن تغير شيئا فى مجرى الحوادث. و تمثل الجبرية فى التراث الإسلامى الجهمية الذين يردون كل شىء إلى الله , والعبدعندهم أشبه ما يكون بريشة فى مهب الريح .

[٢] من مجالى أهميته أنه طبق منهج التفسير الميكانيكى على الحياة ذاتها ,وهى تعارض بطبيعتها المفهوم الميكانيكى.

[٣] أى المدارس التى تعيد تفسير فلسفة كانت وتعتمد على أسسها

خامسا: تيارات جانبية:-

لم تتسيد المثالية والتطورية الوضعية وحدهما الفكر الأوربى فى الفترة المشار إليها , حيث تطور تياران آخران بموازاتهما , وإن كانا أقل أهمية وأقل تأثيرا فى الظاهر , ولكنهما يحوزان أهمية حقيقية رغم ذلك. فقد ظهر **الاتجاه اللاعقلى** أولا , وهو الناتج عن الحركة الرومانتيكية وخلفُها , ليعارض المذهب العقلى الهيجلى. وممثل هذا الموقف هو شوبنهور الفيلسوف الألمانى (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) , الذى يرى أن المطلق ليس العقل , بل إرادة عمياء ولا عقلية . وإلى جانب شوبنهور ظهر المفكر الدا نمركى كيركجارد (١٨١٣ - ١٨٥٥ م) ليدفع إلى مدى أبعد الهجوم على المذهب العقلى. وكان قد ظهر قبلهما فى فرنسا تيار يدافع عن الإرادة ويدعو إلى الاتجاه اللاعقاب هو الآخر , وإن كان تيارا أقل ظهورا , وقد مثله مين دى بيران (١٧٦٦ - ١٨٢٤ م).

وفى مرحلة تالية , وبعد الهجوم على المذهب العقلى الهيجلى , هاجم الاتجاه اللاعقلى مذهب العقلى العلمى , وهو هنا سوف يعتمد فى هجومه على نظرية التطور عند دارون. وكان النبى المعبر عن هذا الموقف هو نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) , الذى يعلن أولوية الاندفاع الحيوى على العقل , ويطالب بمراجعة كل القيم , وينادى بعبادة الرجل العظيم. وكان اعتماد فلسفة دلتاى (١٨٣٣ - ١٩١٢ م) هى الأخرى على الاتجاه التطورى , ويؤكد هذا الفيلسوف الألمانى على أولوية التاريخ وعلى نسبية الفلسفة. ثم تجد النزعة النسبية ممثلا إلا يقدمها فى صورة جديدة فى شخص الفيلسوف الألمانى سيمل (١٨٥٨ - ١٩١٨ م).

أما التيار الثانوى الآخر من تيارات القرن التاسع عشر الميلادى فى الحضارة الغربية فهو تيار **الميتافيزيقا**. ودعوى فلاسفة هذه المدرسة تقوم فى أنهم قادرون على الوصول إلى عالم يقع فوق عالم الظواهر. ونلاحظ غالبا عندهم ميلا نحو الأخذ بالتعددية الميتافيزيقية مقرونا بتفهم عظيم مشكلات الإنسان الواقعى. ولم يشكل هذا التيار مدارس مهمة , ومثله مفكرون منفردون. ولنذكر منهم فى ألمانيا هربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١ م) وفشنر (١٨٠١ - ١٨٨٧ م) ولوطزه (١٨١٧ - ١٨٨١ م) وفون هارتمان (١٨٤٢ - ١٩٠٦ م) ثم يأتى من بعدهم , مع تنويعات هنا وهناك , فنت (١٨٣٢ - ١٩٢٠ م) وأيكن (١٨٤٦ - ١٩٢٦ م) وباولسن (١٨٤٦ - ١٩٠٨ م). أما فى فرنسا , فإن الآخذين بالتيار الميتافيزيقى هم فيكتور كوزان (١٧٩٢ - ١٨٦٧ م) وتلامذته (ومنهم بول جانيه : ١٨٢٣ - ١٨٩٩ م). ولكن النظم الفلسفية التى بناها كل من رافيسون (١٨١٣ - ١٩٠٠ م) ولاشلييه (١٨٣٢ - ١٩١٨ م) تقدم ذلك التيار فى صورة أقوى. وعلى عكس الحال فى ألمانيا وفرنسا , فإن التيار الميتافيزيقى لم يظهر فى صورة ملفتة للنظر فى إنجلترا.

وهناك أمر يشترك فيه التيار اللاعقلى مع التيار الميتافيزيقى ألا وهو الانطلاق من مواقف فلسفة كانت والاعتماد عليها. ذلك أن المذهب اللاعقلى ينتج مباشرة , من جهة , عن المذهب الكانتى القائل بعدم إمكان نفاذ العقل إلى مشكلات الميتافيزيقا , كما أن معارضته للاتجاه العقلى عند كانت يشكل خطاً هاديا له , من جهة أخرى. كذلك , فإن تأثيرات من الاتجاه التجريبى الميكانيكى, على الطريقة الداروينية , تظهر فى المذهب اللاعقلى , وخاصة عند نيتشه. ونفس الحال أيضا فيما يخص الفلاسفة الميتافيزيقيين , رغم أن هذا قد يبدو مستغربا.

فهم جميعا يأخذون بثنائية عالم الظواهر وعالم الوجود فى ذاته , كما أن معظمهم ينحاز إلى جانب الموقف الميكانيكى. ولنوجه الانتباه إلى أن هذين التيارين , وأهميتهما محدودة إلى حد ما ,لا يقارنان بتيارى المثالية والتجريبية , وهما التياران اللذان سادا الفلسفة الأوربية فى القرن التاسع عشر الميلادى.

الأزمة

أولا :المتغيرات

دخلت الفلسفة الغربية دور أزمة عميقة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين الميلاديين وتتمثل أعراض هذه الأزمة فى ظهور حركات فكرية تعارض المذهبين الأهمين فى الفكر الأوربى الحديث , أى المذهب الميكانيكى المادى والمذهب الذاتى .وهذا التغير لا يقتصر على ميدان الفلسفة , بل يمتد إلى ما وراءه [١], ويمكن أن نقارنه مع الأزمة الكبيرة التى أنتجت فى عصر النهضة الأوربية الثقافة الأوربية الحديثة كلها . ومن الصعب كثيرا أن نحدد كل علل هذه الأزمة , وهى علل متعددة بقدر ما هى متداخلة , ولكن الوقائع على الأقل واضحة : فقد وقعت أوروبا فى تلك الآونة تحت ضغط حركة عميقة من الفكر الاجتماعى , واضطرابات اقتصادية خطيرة , وتجديدات جذرية فى الفن , وإصلاحات واضحة فى ميدان الدين. ويتفق المؤرخون , على أى حال, على أن بداية القرن العشرين الميلادى ليست وحسب نهاية مرحلة , بل إنها إسدال للستار على مرحلة تاريخية طويلة , انتهى أمرها الآن وكان ,إلى درجة أن العصر الجديد فى الحضارة الغربية لم يعد ينتمى إلى عصرها الحديث [٢] .

ولهذا فلا يعدم الرأى القائل بأن تلك الثورة الأخيرة هى أكثر جذرية من الثورة التى قام بها عصر النهضة ضد القرون الوسيطة الأوربية ,لا يعدم هذا الرأى أساسا يعتمد عليه .وعلى أى حال , فان هناك أمامنا على الأقل اتجاها جديدا يؤكد نفسه فى شتى مجالات الحياة , وتقوم الحروب التى تشتعل فى إطار الحضارة الغربية بدور الدافع لإسراع عملية التحلل فى جسم الغرب والتى فتحت الباب أمام الأزمة. مثل هذا التحول العميق فى الحياة العقلية والروحية يقابل بطبيعة الحال تغيرات موازية فى الميدان الاجتماعى ,أو أنه ,جزئيا على الأقل , النتيجة الضرورية لهذه التغيرات الاجتماعية.

و يمكن رد هذه الأسباب إلى مجموعات ثلاث .**المجموعة الأولى** تحتوى على أزمة علم الطبيعة وعلى أزمة علم الرياضيات , وهو ما أدى , من ناحية , إلى تطوير عظيم فى الفكر التحليلى , ومن ناحية أخرى , إلى تهدم بعض المواقف العقلية النموذجية فى فكر القرن التاسع عشر الميلادى. **المجموعة الثانية** من الأسباب تضم ظهور منهجين جديدين للبحث, هما المنهج الرياضى المنطقى والمنهج الفينومينولوجى. أخيرا تتكون **المجموعة الثالثة** من عدد من تصورات العالم الجديد, أهمها التصور اللاعقلى والاتجاه الميتافيزيقى الواقعى الجديد .

وتترابط كل هذه الحركات الفكرية معا فى أغلب الأحيان .وهكذا , مثلا , فإن المنطق الرياضى على صلة وثيقة بأزمة علم الرياضيات , بينما تقوى أزمة علم الطبيعة من ساعد الاتجاه اللاعقلى , وأخيرا فإن نفس المفكرين هم الذين يؤسسون المنهج الفينومينولوجى والواقعية الميتافيزيقية الجديدة .كذلك , فإن رواد المنهج الفينومينولوجى ورواد المنهج المنطقى الرياضى يتبادلون التأثير والتأثر فيما بينهم. ورغم هذه العلاقات المتبادلة ,إلا أنه ينبغى أن نقول إن الظهور المتآنى (أى فى نفس الآن) لهذه الحركات كلها , وإن اختلفت فيما بينها من حيث الأزمة ظروفها التاريخية ومن حيث الغايات التى تسعى إليها ,هذا الظهور المتآنى يشكل ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ الفكر الإنسانى .والحق أن هذه الحركات تؤدى إلى إحداث تحول كامل وشامل فى الفلسفة الغربية.

ثانيا :أزمة علم الطبيعة النيوتونى:-

كان معظم فلاسفة الغرب فى القرن التاسع عشر الميلادى يعتقدون أن علم الطبيعة ,كما انتهى إليه العالم الإنجليزى ,الأشهر نيوتن, هو تصويرصادق مطلق الصدق للعالم , وأنه صورة واضحة للواقع , حيث ينتهى تحليل كل شىء إلى اندفاعات الذرات المادية والمواقف التى تنشأ عن ذلك (وهذاهو الاتجاه الميكانيكى). وأساس ذلك هو أنه ينتج عن كون الموقف المعطى لنا فى الحاضر , واندفاعات الذرات , أموراً معروفة , ينتج أنه يصير فى وسع العلم أن يستنبط من ذلك , عن طريق الحساب , وحسب القوانين الميكانيكية , كل تطور سابق أو لاحق للعالم (وهذه هى نظرية الحتمية كما أخرجها العالم الفرنسى لابلاس). وقد اعتقد المفكرون أن مبادئ علم الطبيعة, بل ونظرياتها كذلك , صادقة صدقا مطلقا (نظرية المطلق مطبقة على الحقيقة).

وفى إطار علم الطبيعة النيوتونى , فإن أبسط المعطيات هى المادة , وكل شىء آخر ينبغى أن يكون ممكن الاختزال إلى هذا المعطى البسيط (وهذا هو المذهب المادى , أو المادية).ومن جهة أخرى , فإن علم الطبيعة هو أقدم العلوم التى تدرس العالم, وقد وجد ما يؤكد أهميته فى تطور الفنون الميكانيكية [٣], بينما لم تكن فروع أخرى من المعرفة , التى ستشهد نمواً وازدهاراً خلال القرن التاسع عشر الميلادى , ومنها خاصة علم التاريخ , لم تكن قد ظهرت بعد ظهوراً بيناً. وفى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلاديين , أخذ بعض المفكرين فى التشكك فى قيمة هذا التصور الفيزيقى النيوتونى للعالم. وإذا كان صحيحا أنه ليس من الدقة أن نعتقد , كما قد يظن البعض , أن علم الطبيعة الجديد [٤] لم يعد يعرف شيئا اسمه المادة , أو أنه

---

[١] أى إلى ميادين الاجتماع والاقتصاد والفن والإنسان بعامة.

[٢] بسبب شدة الاختلافات ما بين المرحلتين

[٣] وهو ما يسمى بالتكنولوجيا.

[٤] يقصد ما بعد النظرية النسبية ونظرية الكوانتم ومبدأ اللاحتمية (فى القرن العشرين الميلادى).

يرفض مبدأ الحتمية فى جملته. ولا يقبل أية قضايا على أنها يقينية يقينا مطلقا , إلى غير ذلك , إلا أنه من الحقيقى أن أمورا كثيرة كانت تبدو فى أعين العلم مؤكدة تمام التأكيد أصبحت الآن قابلة للمناقشة.

وهكذا مثلا , فإنه ليس موضعا للشك الآن أن المادة ليست بسيطة , بل أنها على العكس شديدة التعقيد , وأن دراستها العلمية تثير قدرا عظيما من الصعوبات. كذلك فإنه يبدو الآن أنه من المستحيل أن نحدد على الدقة , فى نفس الوقت , موقع واندفاع جزئ مادى ما , حتى أصبحت الحتمية كما ارتآها العالم لابلاس أمرا لا يمكن الدفاع عنه. هل أصبحت الحتمية إذن , بشكل عام, مبدءا ملقى فى سلة المهملات؟ وهل يمكن أن تعيش من جديد تحت صورة مختلفة عن صورتها التقليدية؟ هذا هو السؤال الذى يضعه الآن كبار علماء الطبيعة. يقول العالم الإنجليزى الكبير آرثر ادنجتون , وهو من علماء الطبيعة الفلكية : " أننى معارض للحتمية بقدر معارضتى للقضية التى تقول إن العالم مصنوع من سمن وعسل.... فهذان الفرضان معا لا أساس لهما من الصحة ". وحتى المذهب الميكانيكى نفسه , فإنه قد تطور وغير من سماته.

وفى هذا المجال يلاحظ وايتهد , الفيلسوف الإنجليزى وواحد من أفضل العارفين بهذه المشكلات, وعن حق , أن علم الطبيعة السابق كان يتصور العالم على أنه سهل كانت تمرح فيه الخيول على حريتها , أما علم الطبيعة الجديد فإنه يراه على هيئة ميدان يمتلئ بالخطوط الحديدية وعليها عربات الترام التى تتبع اتجاهات محددة لها من قبل بدء حركتها , وأن المذهب الميكانيكى الجديد يقترب كثيرا من تصور عضوى للواقع. أخيرا , فإن ظهور نظرية النسبية ونظرية الكمات [1], واكتشافات أخرى فى علم الطبيعة , كل هذا أدى إلى التشكك فى عدد من النتائج كان ينظر إليها من قبل على أنها صحيحة صحة مطلقة. هذه التحولات العميقة فى الفيزياء كان لها ردود مزدوجة فى الفلسفة.

فحيث إن علماء الفيزياء أنفسهم لم يعودوا يتفقون على صحة الاتجاه الميكانيكى والمذهب الحتمى ولا على مدى صوابهما , وحيث إنهم يحاولون أن يدرسوا , دراسة علمية , المادة التى تبدو معقدة من جديد , حتى أنهم أصبحوا مضطرين إلى إعلان نسبية نظرياتهم , فإنه ينتج عن كل ذلك أن الاتجاه الميكانيكى والمذهب الحتمى لا يعودان يعتمدان على سلطة العلم الطبيعى, وأن تفسير الوجود بالمادة يصبح أمرا مشكوكا فيه , ولا يمكن الاعتماد عليه.

ثالثا: نقد العلم :-

لم يكن الموقف الذى وصفناه فى السطور السابقة نتيجة لتطور العلوم ذاتها وحسب , بل شارك عدد من المفكرين فى خلقه , وهما المفكرون الذين كانوا قد وضعوا تحت مجهر التحليل مناهج العلوم الطبيعية ووضعوها موضع التساؤل , وذلك من قبل انفجار أزمة علم الطبيعة النيوتونى. ويحتل الفلاسفة الفرنسيون فى اتجاه " نقد العلم " ذاك مكانا مرموقا , فهناك أميل بوترو (١٨٤٥ - ١٩٢١ م فى كتابيه " فى احتمالية قوانين الطبيعة " ١٨٧٤ م), و " فى فكرة القانون الطبيعى " ١٨٩٤م , وهناك بيير دوهم (١٨٦١ - ١٩١٦ م), وأول كتبه الهامة هو " المخلط والتركيب الكيميائى" ١٩٠٢م , وهنرى بوانكاريه (١٨٥٣ - ١٩١٢ م, فى كتابه " العلم والافتراض " ١٩٠٢م).

وفى نفس هذا الوقت تظهر كتابات اتجاه " نقد المذهب التجريبى" , الذى يبدأ من موقف وضعى وينتهى إلى نتائج أكثر تطرفا فى نقدها للعلم. ففى عام ١٨٨٨ - ١٩٩٠ م. نشر ريتشارد أفيناريوس (١٨٤٣ - ١٨٩٦ م) كتابه " نقد التجربة الخالصة ", وفى عام ١٩٠٠ نشر أرنست ماخ (١٨٣٨ - ١٩١٦ م) مؤلفه الرئيسى حيث يقوم فيه بنقد شديد التفصيل للقيمة المطلقة للعلم. ويتجه نقد العلم إلى الهجوم على قيمة الأفكار العلمية ونظريات العلم. وقد بينت التحليلات التفصيلية والبحوث التاريخية أن هذه الأفكار وتلك النظريات هى ذات طبيعة ذاتية فى قسم كبير منها. فالعالم لا يشرح الواقع بطريقة تعسفية وحسب , أى تدخل فيها اختياراته وتفضيلاته , بل إنه كذلك يقوم بعمله ابتداء من أفكار تخرج من ذهنه هو. أما عن النظريات العلمية الكبرى , فإنها , فى نظر اتجاه نقد العلم , لا تزيد فى حقيقتها عن أدوات ملائمة مريحة لتفسير التجربة , وكما يقول بوانكاريه فإن النظريات العلمية : " لا هى بالصحيحة ولا هى بالكاذبة , وإنما هى مفيدة وحسب ".

ومن الجدير بالملاحظة أن أى ناقد من نقاد العلم الفرنسيين , بمن فيهم بوانكاريه نفسه , لم يكن من أتباع المدرسة التى تقول بأن مصطلحات العلم ومفاهيمه ما هى إلا " اتفاقات "[2], وإنما الذى كانوا يقصدون إليه هو البرهنة على أن العلم أبعد ما يكون عن مثال العصمة من الخطأ الذى كان المفكرون والعلماء ينسبونه إلى العلم عادة فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى. ثم جاء المفكرون الألمان أصحاب اتجاه " نقد المذهب التجريبى" , ومشوا فى نفس الطريق وإلى أبعد مما ذهب إليه الفرنسيون, وقالوا بنوع من المذهب النسبى قريب من المذهب الشكى. وبصفة عامة , فإن العلم فقد قسما كبيرا من سلطته فى أعين الفلاسفة نتيجة لكل تلك الانتقادات , ثم جاءت الأزمة الداخلية فى علم الفيزياء لتزيد من سرعة عملية التحلل. وأصبح الموقف أنه لا يمكن بحال الاعتماد على مصداقية التصور النيوتونى للعالم , وكان هذا التصور هو الافتراض المسبق الأساسى للفلسفة الكانتية ولكل الفكر الأوربى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى.

ولكن أزمة علم الطبيعة أنتجت نتيجة أهم من ذلك بكثير. فقد أظهرت بوضوح أنه لا يمكن قبول مفاهيم وقضايا العلم الفيزيائى بدون تحليل فلسفى , وأنه لا يمكن , من وجهة نظر فلسفية , اعتبار النظريات (Théorémes) الطبيعية صحيحة قبليا. وعلى

---

[1] أو "الكوانتم ", وأخرج النظرية ماكسر بلانك العالم الألمانى (١٨٥٨ - ١٩٤٧ م).

[2] أى أن العلم مجرد بناء عقلى ولا يدل بالضرورة على العالم الموضوعى. وهو ما يعنى التأكيد على العنصر الإنسانى والنسجى فى تكوين العلم.

هذا اتضح أن ديكارت وكانت أساءا التصور على نحو يتسم بالسذاجة الشديدة. من جهة أخرى , وبفضل كل هذه الاكتشافات, فإن أزمة علم الطبيعة أيقظت الفكر التحليلى , الذى سيكون واحدا من علامات الفلسفة فى القرن العشرين الميلادى.

رابعا: أزمة الرياضيات والمنطق الرياضى:-

وكحال علم الطبيعة , فإن علم الرياضيات قد انتهى هو الآخر إلى أزمة فى نهاية القرن التاسع عشر: وهى أزمة لن تكون أقل عمقا ولا أقل فى أهمية نتائجها من أزمة علم الفيزياء. وقد ظهرت اكتشافات عديدة فى علم الرياضيات فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى , ولكن أكثرها تأثيرا من الناحية الفلسفية كانت الاكتشافات الخاصة بالهندسة غير التقليدية ونظرية المجموعات (Theorie des ensembles) التى قام بها كانتور (١٨٤٥ - ١٩١٨ م) فقد أظهر هذان الاكتشافان أن ما كان يعد من قبل , وبغير تردد , مجرد افتراضات مسبقة لا يقوم علم الرياضيات إلا عليها , ما هو فى الواقع إلا قضايا ليست يقينية على الإطلاق , كما نبه هذان الاكتشافان الأنظار إلى ضرورة التحليل الدقيق للمفاهيم التى تبدو فى الظاهر بسيطة , وإلى تركيب النظم الرياضية ابتداء من المسلمات.

وفيما يخص نظرية المجموعات , فقد اكتشف الرياضيون , عند انتهاء القرن التاسع عشر الميلادى , ما يسمى "بالمفارقات" (Paradoxes), أى استنتاجات متناقضة , ابتداء من مسلمات بسيطة وواضحة فى الظاهر ,رغم كون البراهين المستخدمة صحيحة. وهكذا انتهى الحال إلى تهافت أسس علم الرياضيات ذاته. وقد عاد المنطق الصورى إلى النهوض من جديد , تحت أسماء جديدة , منها المنطق الرمزى والمنطق الرياضى , فى ظل اتصال وثيق مع أزمة علم الرياضيات تلك.

وقد سبق أن ذكرنا أن الفلسفة الأوربية الحديثة أهملت المنطق الصورى إهمالا كبيرا , حتى لقد سقط فى زاوية النسيان المهين. فلم يكن بين كبار الفلاسفة فى الفكر الأوربى الحديث إلا واحد , هو ليبنتز , كان منطقيا مرموقا , أما الآخرون فكانوا يجهلون أسس المنطق الصورى نفسه , وكفى على ذلك شاهدا حالة ديكارت وكانت. ثم ظهر فى عام ١٨٤٧ م كتابان, كل منهما مستقل عن الآخر , لرياضيين إنجليزيين هما مورجان (١٨٠٦ - ١٨٧٨ م) وجورج بول (١٨١٥ - ١٨٦٤ م) , ويعتبرهذان الكتابان أول ما نشر فى المنطق الرياضى الجديد. ثم استمر فى نفس الاتجاه أرنست شرودر (١٨٤١ - ١٩٠٢ م) وبيانو (١٨٥٨ - ١٩٣٢ م) وخاصة فريجة (١٨٤٨ - ١٩٢٥ م) وهو مفكر ومنطقى مرموق. ورغم ذلك فقد ظل المنطق الرياضى مجهولا عند الفلاسفة على التقريب , حتى أوائل القرن العشرين الميلادى. فلم تأخذ الفلسفة الإنجليزية , على الأقل , فى الاهتمام بهذا النوع من البحوث إلا بعد ظهور كتاب برتراند رسل "أسس الرياضيات " فى عام ١٩٠٣ م , وذلك إثر مقابلته مع الرياضى بيانو عام ١٩٠٠ . ثم ظهر بعد ذلك فى ١٩١٠ - ١٩١٣ الكتاب الضخم الذى ألفه رسل مع وايتهد بعنوان "مبادئ الرياضيات" , وهو المؤلف الذى أسرع من خطى تطور هذا الفرع الجديد , أى المنطق الرياضى.

وقد أثر المنطق الرياضى تأثيرا مزدوجا على الفلسفة. فمن ناحية , ظهر أنه أداة دقيقة جدا من أجل تحليل المفاهيم والبراهين, وأنه أداة يمكن تطبيقها , بحسب رأى أهلها هم أنفسهم , على ميادين أخرى غير الرياضيات ,لأن هذا المنطق "الرياضى" ليس رياضيا إلا من حيث منشئه , وأنه يتعامل فى الواقع مع مفاهيم غير رياضية وعامة تماما. ومن ناحية أخرى , فقد أدى البحث المنطقى الرياضى إلى إلقاء الضوء من جديد على مشكلات عتيقة من مشكلات الفلسفة , مثل مشكلة الثالث المرفوع , ومشكلة , مدى وضوح البديهيات , ومشكلة النحو الفلسفى (أو ما يسمى اليوم السميوتيقا (Semiotics), وخاصة مشكلة الكليات [1].

خامسا: المنهج الفينومينولوجى:-

الحركة الثانية التى ساهمت فى قطع الجسور مع اتجاهات القرن التاسع عشر الميلادى وفى بناء الفلسفة الحالية فى القرن العشرين هى اتجاه الفينومينولوجيا , الذى بدأ من قضايا فلسفية مغايرة تماما للقضايا التى بدأ منها الاتجاه الناشئ عن أزمة العلوم الطبيعية والرياضية , والذى كان يهدف إلى أهداف مختلفة عن أهداف هذا الاتجاه الجديد. وإذا أردنا استخدام اصطلاح "الفينومينولوجيا " استخداماً صارما فإنه لا ينطبق على الدقة إلا على منهج إدمند هُسرل , ولكن الباحثين يستخدمون هذا الاصطلاح للإشارة إلى مجموعة كبيرة من المفكرين الذين يمثلون اتجاها مماثلا له. ومؤسس هذه الحركة هو الألمانى فرانز برنتانو (١٨٣٨ -١٩١٧ م) , وكان قسا دومينيكانيا , ولكنه ترك الرهبنة ثم خرج على الكنيسة , وإن بقى متأثرا فى أكثر من ناحية بالفكر الأرسطى وبالفلسفة التوماوية (نسبة إلى توما الأكوينى فيلسوف الكنيسة فى العصور الوسطى المسيحية) , وهو ما يظهر من اتجاهه الموضوعى , ومن إقباله على التحليلات الدقيقة وعلى البحوث المنطقية. وقد خلف تلامذة ثلاثة كان لهم تأثيرهم الكبير , وهم تفاردُفسكى ومينونج وهسرل.

ورغم أن تفاردفسكى لم يكن منطقيا هو نفسه (١٨٦٦ - ١٩٣٨ م) , إلا أنه أصبح مؤسس المدرسة المنطقية البولندية , وهى التى ستساهم بنصيب واضح فى تطورالمنطق الرياضى. أما مينونج (١٨٥٣ - ١٩٢١ م) فإنه قدم "نظرية الموضوع " وأسس مدرسة , هى صغيرة ولكنها مؤثرة. وأهم تلامذة برنتانو هو إدموند هسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨ م) الذى قام على إبداع المنهج الفينومينولوجى بالمعنى الدقيق. وهذا المنهج يقوم فى أساسه على تحليل جوهر المعطى أو الظاهرة , وقد أصبح ,

---

[1] البعض يقول إنه يوجد وجودا نوعيا مستقلا عن الإنسان (وهذا هو المذهب "الواقعى" فى إطارمشكلة الكليات) ,والبعض الآخر يرى أنه مفهوم عقلى موضوعى ذو كيان خاص ,ولكنه يوجد فى العقل (المذهب التصورى) ,ويقول البعض الثالث إنه مجرد اسم (وهذا هو المذهب الاسمى).

وبعد الحرب الأوربية الكبرى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ ميلادية) على الأخص , المنهج الأكثر انتشارا مع منهج المنطق الرياضى.

والاختلاف الرئيسى بين الفينومينولوجيا والمنطق الرياضى يقوم فى أن المنهج الفينومينولوجى لا يستخدم الاستنباط على الإطلاق ولا يهتم إلا قليلا باللغة (رغم اهتمام هسرل نفسه بها) , ولا يقوم بتحليل الوقائع التجريبية , بل بتحليل الماهيات. ومن المفيد أن نلاحظ أن كتاب مينونج الأساسى , وهو "حول الإثبات ", ظهر فى ١٩٠٢ م. بينما كان كتاب هسرل "البحوث المنطقية", وهو أحد أخصب الكتب التى ظهرت فى النصف الأول للقرن العشرين الميلادى , قد ظهر فى عام ١٩٠٠ - ١٩٠١ م.

ويقترب إلى حد ما من المنهج الفينومينولوجى المنهج " التحليلى" عند الفيلسوف الإنجليزى جورج مور (١٨٧٣)[١] , وهو الذى أصبح عند رسل التحليل الرياضى المنطقى . وهذا المنهج التحليلى يكتسى طابعا خاصا عند مور , الذى يقترب فى كتابه "مبادئ الأخلاق ", الظاهر سنة ١٩٠٣ م , من منهج مينونج ويبدو متأثرا به إلى حد ما. بل إن تأثير مينونج ليظهر على أكثر من وجه عند رسل فى كتابه " أسس الرياضيات ", كما أن تطور المنطق الرياضى , من بعد , سوف يتأثر بعدد من الأفكار الهامة عند هسرل.

سادسا: الاتجاه اللاعقلى الحيوى:-

يشترك المنطق الرياضى مع الاتجاه الفينومينولوجى فى أنهما معا مناهج وليسا مذاهب من حيث محتواهما , وأنهما ظهرا نتيجة للتفكير فى أسس العلوم , وأنهما يبحثان فى تأسيس تلك العلوم على أساس جديد عقلى. فهذان الاتجاهان , لهذا , يتسمان بالتعددية , وهما يتعارضان مع الميل إلى بناء نظم فلسفية. وقد شارك هذان الاتجاهان بتحليلاتهما فى تعرية عدد من التبسيطات الساذجة التى سادت فى القرن التاسع عشر وفى تحطيمها. كذلك فإن هذين الاتجاهين , على الأقل فى بدايتهما , يأخذان جانب المذهب الواقعى [٢] , ونرى عند مور وعند هسرل تعاطفا مع الفلسفة الأفلاطونية , وهى ظاهرة جديدة تماما بالمقارنة مع التطورات السابقة. ومع ذلك , فلا المنطق الرياضى ولا الفينومينولوجيا , على الأقل فى أصلهما , أى فى "مبادئ" الرياضيات " لرسل وروايتهد" وفى "البحوث المنطقية " لهُسرل , يعدان فلسفتين بالمعنى الصحيح , وإنما هما من المناهج.

ولكن هاهما حركتان فلسفيتان جديدتان من حيث المضمون تظهران في نفس لحظة ميلاد المنطق الرياضى والفينومينولوجيا **: الاتجاه الحيوى اللاعقلى والميتافيزيقا الواقعية**.

لقد كان من نتائج الأزمة العقلية والروحية لتلك الفترة أن اتسع رواج الاتجاهات اللاعقلية اتساعا عظيما , حتى أصبح ذلك من مميزات أواخرالقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان الفيلسوف الألمانى كانت قد رفض القول بأن المعرفة العقلية يمكن لها أن تدرك عالما يقوم فيما وراء الظواهر , ومع ذلك فإنه يبقى على الأقل أن العالم التجريبى تحكمه قوانين عقلية وقابلة للحساب. ثم جاء اتجاه "نقد العلم " وأزمة علم الطبيعة ليبرهنا على أن الأمر ليس كذلك , وأن الشك الكانتى فى قدرة العقل على المعرفة يمتد ليكون عاما فى قدرته على معرفة أى شىء. وكان العقل مفهوما على الطريقة الميكانيكية , وكما يظهر من ممارسة العلوم , يقوم فى مقام العقل كله فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى , فجاءت أزمة العلم الميكانيكى لتؤدى بالضرورة إلى أزمة للمذهب العقلى كله.

ولكن هذا ليس وحده منبع الاتجاهات الجديدة. فمن المفارقات , أن الاتجاه التجريبى نفسه الذى كان سائدا , قد شارك هو نفسه بنصيب كبير فى تطوير هذه الاتجاهات , من حيث إن تصوره الميكانيكى للكون كان قد نُقل إلى ميدان الحياة وظهر على هيئة نظرية دارون فى التطور. فمن غرائب تطورات الفكر أن هذا المذهب , الذى يقول بأن كل كائن عال يأتى من كائن أدنى منه , نقل من تطبيقه على علم الحياة إلى علم النفس والى علم الاجتماع. ثم ظهر الاتجاه إلى إرجاع كل حياة الوعى , بما فيها العمليات العقلية , إلى عناصر أدنى منها , وإلى اعتبارها خاضعة لقوانين تطور الكائنات الحية : وكانت النتيجة أنه لم يعد من ثبات فى شىء ولا سكون , ولا وجود لشىء اسمه المبادئ الخالدة , وإنما هناك وحسب الدفعة الحيوية التى تخدم تطور الحياة.

أخيرا , فإن نفس الأسباب التى رأيناها تدفع إلى ظهور المذهب الرومانتيكى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى , وإن كان التراث الذى تراكم خلال هذه الفترة قد حل محلها وقام مقامها , هذه الأسباب أدت فعلها فى إظهار التيارات الجديدة : ذلك أن الصورة ذات الطابع الواحدى والحتمى التى قدمها العلم قبل عام ١٩٠٠ ميلادية عن العالم , كانت مثيرة للسخط إلى درجة أنها استثارت احتجاج عدد من المفكرين , الذين شعروا أن من واجبهم النهوض للدفاع عن حقوق الحياة والشخص الإنسانى والقيم الروحية.

وقد ظهر هذا الاحتجاج بشكل غير متوقع وبالغ العنف عند فيلسوفين بوجه خاص , هما وليم جيمس الأمريكى وبرجسون الفرنسى , اللذين استقرا على رأس هذه الحركة الفلسفية. وكان هربرت اسبنسر , أعظم ممثلى الاتجاه التجريبى الميكانيكى ,

---

[١] توفى عام ١٩٥٨.

[٢] أى القول بوجود المعانى والكليات فى ذاتها

لا يزال حيا حين ظهر فى وقت واحد تقريبا كتاب برجسون "المعطيات المباشرة للشعور ١٨٨٩ م وكتاب جيمس "مبادئ علم النفس" (١٨٩٠م), وأعقبهما لكل منهما , على التوالى , " المادة والذاكرة "(١٨٩٦ م) و "إرادة الاعتقاد (١٨٩٧م).

وقد أثر هذان المفكران تأثيرا عظيما على الفكر الغربى خلال النصف الأول للقرن العشرين. ويكفى أن نلاحظ هنا أن كليهما يعلن اتجاهه اللاعقلى وأنهما يضعان فكرة الحياة فى قلب تأملاتهما الفلسفية. وبفضلها أصبح الاتجاه اللاعقلى , الذى كان تيارا من الدرجة الثانية فى خلال القرن التاسع عشر , قوة رئيسية بين قوى الفكر الغربى فى النصف الأول من القرن العشرين.

سابعا: نهضة الميتافيزيقا الواقعية:-

فى موازاة مع حركة الاتجاه اللاعقلى تجمعت أسباب ظهور حركة أخرى عميقة : العودة إلى المذهب الواقعى وإلى الميتافيزيقا, وهو ما يؤدى إلى نسف إطار مبادئ الفلسفة الكانتية لأول مرة منذ كانت , وهى المبادئ التى كانت تحكم الفلسفة كلها خلال القرن التاسع عشر الميلادى. ومن الصعب اكتشاف أسباب هذه الحركة الجديدة وعللها العميقة. ولا شك فى تعدد أسس الميتافيزيقا الجديدة وتنوعها.

و يمكن أن نقول بصفة عامة إن موارد الفلسفة الكانتية بدأت فى النضوب حوالى عام ١٩٠٠ م. , فلا هى تكفى ولا هى ترضى أحدا , والفكر يبحث عن حلول جديدة. ويظهر فى المحل الأول تيار يأخذ وجهة الواقعية النقدية , وهو تيار لا يغادر الإطار الكانتى , ويعبر عنه الألمانى ريل (١٨٤٤ - ١٩٢٤ م) مثلا بعد ذلك سارت مدرسة جامعة فورتزبوج الألمانية , والتى أسسها أوزفالد كولبه (١٨٦٢ - ١٩١٥ م) فى نفس هذا الاتجاه , وتذهب به إلى مدى أبعد وبقوة , وقد تبع كولبه فى هذه المدرسة مفكرون لامعون.

ولكن حركة تجديد المذهب الواقعى الحقيقية إنما هى من إنتاج برنتاتو وتلامذته , وعلى الأخص مينونج وهسرل , وهؤلاء جميعا هم أيضا وراء ظهور المنهج الفينومينولوجى. صحيح أن هسرل نفسه لم يدفع بتأملاته إلى حد المذهب الواقعى [1], ولا حتى إلى فلسفة الوجود , ولكن الصحيح أيضا أن صرفه انتباه المفكرين عن المشكلات العقيمة التى انتهت إليها بحوث نظرية المعرفة فى عصره , وتحويله إلى تحليل المعطيات العقلية , كان ذا أهمية عظمى من أجل ظهور الاتجاه الواقعى الجديد والعودة إلى الميتافيزيقا.

وكان تأثير مينونج هاما هو الآخر فى نفس هذا الاتجاه. وخارج هذه المنطقة الفكرية , اكتسبت الميتافيزيقا الواقعية أرضا جديدة فى مواقع أخرى تحت تأثير عناصر روحية متنوعة. فالفلسفة التوماوية تعود إلى الظهور حوالى عام ١٨٨٠ م. (مع خطاب البابا عام ١٨٧٩ م. الذى يبدأ ب "الأب الخالد") , وتؤسس مدرسة كبيرة سوف تصير من بعد من أقوى المدارس: ففى عام ١٨٩٣ م. تؤسس " المجلة التوماوية" فى مدينة فريبورج الألمانية, كما تظهر عام ١٨٩٤ م , "مجلة المدرسية الجديدة للفلسفة ", فى مدينة لوفان ببلجيكا. ويقول المذهب التوماوى الجديد بالواقعية المباشرة ويدعو إلى الميتافيزيقا التقليدية. وهو ليس وحده فى هذا الميدان , ففى إنجلترا يخرج جورج مور مقالته الشهيرة " تفنيد المثالية ", ويعلن بالاتفاق مع رسل فلسفة قريبة من المذهب الأفلاطونى. وفى فرنسا يقف أميل بوترو وبرجسون فى صف المذهب الواقعى , ولكن لأسباب مختلفة. وفى ألمانيا يثير مذهب هانز دريتش (١٨٦٧ - ١٩٤١ م) , الذى يحتفظ بطابع أرسطى واضح , يثير الاهتمام عند المفكرين.

وإذا لم يكن هذا التيار الواقعى الجديد قد نال شعبية التيار اللاعقلى وانتشاره بين جماهير عريضة, إلا أنه أصبح فعالا مع ذلك, فبه تصبح الميتافيزيقا , التى كانت حركة ثانوية وغير متميزة فى القرن التاسع عشر الميلادى , تصبح أحد المذاهب الرئيسية فى القرن العشرين الميلادى.

ثامنا: عودة إلى التأملات الفلسفية: النزعة التعددية :-

كانت الفلسفة فى نهاية القرن التاسع عشر , وتحت النفوذ الساحق للاتجاه الوضعى , فلسفة هادئة ووقورة للغاية. وربما كان معظم الفلاسفة يخشون من أن يتهمهم أحد بالتفرد أو برأى غريب , وكانت النتيجة أن معظم الجامعات ما كانت تدرس إلا مجرد تعداد مذاهب العصور السابقة.

فلما كانت بداية القرن العشرين , أصبح من أهم ملامحها العودة إلى التأملات الفلسفية المطردة والانتظامية , وهو ما يظهر سواء عند الاتجاه اللاعقلى أو عند الميتافيزيقيين. ولكن السمة الأعمق والأكثر تمييزا هى من غير شك العودة إلى الاتجاه التعددى الشخصانى (أى الذى يهتم بالشخص الإنسانى).

فإذا كان القرن التاسع عشر واحديا فى سائر مظاهر إنتاجه على التقريب , فإن كل حركات نهايته هى , على الضد تماما , تعددية , أى أنها تعترف بتنوع درجات الوجود وبأن هناك كثرة من الموجودات المستقلة. ويجد مذهب التعددية أقصى تعبير

---

[1] مذهب فلسفى حديث، مقابل المثالية، بأن الأشياء المادية موجودة بشكل مستقل عن وجودها المتصور. http://www.thefreedictionary.com/realism

عنه عند وليم جيمس , الذى يذهب إلى حد إظهار التعاطف مع مذهب تعدد الآلهة , كما يظهر المذهب أيضا عند الفلاسفة الفينومينولوجيين وعند الواقعيين الجدد الإنجليز وعند أتباع القديس توما الأكوينى.

وتعود إلى الشخص الإنسانى حقوقه القد يمة ويصبح محور الاهتمام الفلسفى أكثر وأكثر. ثم تأخذ مشكلات العقل الكبرى فى استثارة الفكراستثارة حقيقية. فإذا كان القرن التاسع عشر عصرا واحديا وماديا , فإن أزمة عام ١٩٠٠ م. تعلن السيادة الواضحة للاتجاه نحو مذهب شخصانى روحى.

ومع ذلك فإن هذه الأفكار كانت لا تزال , حوالى عام ١٩٠٠ م . أبعد ما تكون عن أن تجد قبولا عاما لها. بل أن الربع الأول من القرن العشرين الميلادى يشهد العودة , العارضة , للاتجاهات القديمة , ولكن هاهى الأفكار الجديدة قائمة وتعرض مذاهبها, وسوف تسيطر على المسرح الفلسفى بعد الحرب الأوربية الكبرى الأولى عند معظم المفكرين الأوربيين.[1]

---

[1] تأليف : إ.م. بوشنسكى , ترجمة : د. عزّت قرنى , الفلسفة المعاصرة فى أوروبا , سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت , صدرت السلسلة فى يناير ١٩٧٨ بإشراف أحمد مشارى العدوانى ١٩٢٣ – ١٩٩٠ ,ص٤٥،٢٣

الشخصية

الشخصية Personality هى مجموعة مستقرة من الاتجاهات (الميول) والخصائص التى تحدد تلك القواسم المشتركة والاختلافات فى السلوك النفسى للناس (الأفكار، الشعور، والأعمال) التى لها استمرارية فى الزمان والتى قد لا تكون سهلة الفهم كنتيجة وحيدة للضغوط الاجتماعية والبيولوجية للحظة.

الميول Tendencies هى العمليات التى تحدد الاتجاهية فى الأفكار والشعور، والتصرفات التى تخدم الأهداف أو الوظائف.

الخصائص Characteristics هى هياكل ثابتة للشخصية تستخدم لشرح الأهداف أوالمتطلبات بدلا من الاتجاه نحوهم. كما أنها تستخدم لشرح الأفكار والمشاعر، والتصرفات التى تبدو أقل اتجاهية عنها متكررة فى الطبيعة. مثال عن الميل قد يكون محاولة لتحقيق الكمال فى الحياة فى حين الخصائص ستكون ذات الصلة بالمثل العليا، مثل الجمال أو الكرم، التى هى تعريف الكمال.[1]

موضع الشخصية في تاريخ علم النفس:-

ظهر علم النفس كعلم مستقل وتجريبى بشكل أساسى من مزيج الأفكارمن الفلسفة وعلم النفس. استغرق ميلاد النظام أكثر من قرن من الزمان فى ألمانيا وكان إلى حد كبير عمل فيلهلم فونت Wilhelm Wundt، الذى أسس أول مختبرلعلم النفس فى عام ١٨٧٩ فى جامعة لايبزيج.

دراسة الوعى Consciousness :

هذا العلم الجديد علم النفس تركز على تحليل التجربة الواعية إلى عناصر، والمنهجية صيغت على نهج مأخوذ من العلوم الطبيعية, يبدو أن الفيزياء والكيمياء فتحت أسرار الكون المادى عن طريق اختزال جميع المسائل إلى عناصرها الأساسية وتحليلها.

اهتم فونت وعلماء نفس آخرين فى عصره بدراسة الطبيعة البشرية و كانوا متأثرين بمنهج العلوم الطبيعية، فشرعوا فى تطبيقه لدراسة العقل, لأن هؤلاء الباحثين حددوا أنفسهم بالمنهج التجريبى، درسوا فقط تلك العمليات العقلية التى يمكن أن تتأثر ببعض المحفزات الخارجية التى يمكن أن يكون متلاعب بها ومسيطر عليها من قبل المختبِر. ليس هناك مجال فى هذا المنهج علم نفس التجريبى لمثل هذا الموضوع المعقد، متعدد الأبعاد كالشخصية , حيث لم يكن متوافقاً مع كل من مادة الموضوع أو أساليب علم النفس الجديد.

دراسة السلوك Behavior:

السلوكية Behaviorism هى مدرسة لعلم النفس ، أسسها جون ب. واتسون John B. Watson ، ركزت على علم النفس ودراسة السلوك العلنى بدلا من العمليات العقلية. المدرسة السلوكية الآلية قدمت صورة للبشر كالآلات منظمة تستجيب للمؤثرات الخارجية تلقائيا. وهكذا، فأن علماء السلوك أختزلوا الشخصية إلى ما يمكن أن ينظرإليه ويلاحظ بموضوعية، وبالتالى لم يكن هناك فى تصورهم الوعى أوقوى اللاوعى.

دراسة اللاوعى Unconscious:

طريقة التحليل النفسى Psychoanalysis هى نظرية لسيجموند فرويد Sigmund Freud للشخصية ونظام معالجة لعلاج الاضطرابات النفسية. مستوحى من نهج التحليل النفسى لفرويد، ومجموعة من المنظرين طوروا مفاهيم فريدة عن الطبيعة البشرية خارج التيار الرئيس لعلم النفس التجريبى. هؤلاء المنظرون، والمحللون النفسيون الجدد ركزوا على الشخصية ككل أداءه أو أداءها فى العالم الحقيقى، ليس على عناصر من السلوك أو وحدات الحافز- ورد الفعل كما درس فى مختبرعلم النفس.

الدراسة العلمية للشخصية :

بدأ علم النفس التجريبى والدراسة الرسمية للشخصية فى اثنين من التقاليد منفصلة، مستخدمين أساليب مختلفة ومتبعين أهداف مختلفة, ينبغى أن نلاحظ أن علم النفس التجريبى فى سنواته التكوينية لم يتجاهل تماما الشخصية - تمت دراسة بعض الجوانب المحدودة من الشخصية - ولكن لم تكن هناك موجودة ضمن علم النفس كمنطقة متميزة تعرف باسم الشخصية مثلما كان هناك علم نفس الطفل أو علم النفس الاجتماعى.

---

[1] Salvatore R.Maddi, PERSONALITY THEORIES A COMPARATIVE ANALYSIS, University of California, Irvine ,BROOKS/ COLE PUBLISHING COMPANY,ITP An International Thomson Publishing Company ,p 8 ,9

لم تكن حتى أواخر عام ١٩٣٠ حيث أصبحت دراسة الشخصية رسمية ومنهجية فى علم النفس الأمريكى، كما فى المقام الأول من خلال عمل هنرى موري Henry Murray وجوردون ألبورت Gordon Allport فى جامعة هارفارد. أشارت هذه النشاطات اعترافا متزايدا بأنه من الممكن ادماج بعض المناطق المعنية للمحللين النفسيين ومحللى النفس الجدد فى علم النفس, وبذلك وصل علماء النفس الأكاديمون وصلوا إلى الاعتقاد بأنه من الممكن تطوير الدراسة العلمية للشخصية.

تعريف الشخصية :

يمكننا أن ننظر إلى مصدرها, فالشخصية *personality* مشتقة من كلمة لاتينية *persona*، والتى تشير إلى القناع الذى يستخدمه الممثل فى المسرحية, فمن السهل أن نرى كيف أن الشخصية جاءت لتشير إلى المظهر الخارجى، والوجه العام الذى نظهره للناس من حولنا.

على أساس الاشتقاق، ومن ثم قد نستنتج أن الشخصية تشير إلى الخصائص الخارجية والمرئية لدينا، تلك الجوانب منا التى يمكن للآخرين أن يروها , عندئذ يمكن تعريف شخصيتنا من حيث الانطباع الذى نصنعه عند الآخرين , وهذا هو ما نبدو نحن عليه , هناك تعريف واحد للشخصية في القاموس المقياسى، وينص على أن الشخصية هى الجانب المرئى من الشخص كما يؤثر على الآخرين.

عندما نتحدث عن الشخصية، فنحن نشير إلى أكثر من ذلك , فنحن نعنى بأن تشمل العديد من سمات الفرد، وهى كلية أو مجموعة من الخصائص المختلفة التى تتجاوز الصفات البدنية السطحية. فالكلمة تشمل مجموعة من الصفات الشخصية الاجتماعية والعاطفية أيضا، تلك التى من الممكن ان نكون غيرقادرين على رؤيتها مباشرة، على أن الشخص قد يحاول إخفاءها عنا، أو أننا قد نحاول الاختباء من الآخرين.

فى استخدامنا لكلمة الشخصية ، نشير إلى الخصائص الدائمة, فنحن نفترض بأن الشخصية ثابتة نسبياً ويمكن التنبؤ بها, لكن الشخصية ليست جامدة وثابتة ولكن يمكن أن تختلف حسب الموقف, فمعظم علماء نفس الشخصية حلوا المشكلة عن طريق قبول نهج التفاعليين[١]، متفقين على أن الصفات الشخصية دائمة,والجوانب المتغيرة للموقف، والتفاعل بينهم يجب جميعها أن تنظرفى منظومة من أجل تقديم شرح كامل لطبيعة الإنسان.[٢]

الشخصية من المنظور :

ما نقدمه هنا هو استعراض سريع، وخلاصة، وتركيب من العوامل الرئيسية التى تشكل وتصيغ شخصياتنا.

- العامل الوراثى The genetic factor .
- العامل البيئى The environmental factor .
- عامل التعلم The learning factor .
- عامل الوالدين The parental factor .
- العامل التطورى The developmental factor .
- عامل الوعى The consciousness factor .
- عامل اللاوعى The unconscious factor .

العامل الوراثى :

هناك أدلة قوية على أن بعض سمات الشخصية أو أبعادها موروثة. و هذه تشمل أبعاد إيسنك Eysenck للاضطراب العقلى، والمرض العصبى، والانبساط (وهذه الأخيرة مشتقة من عمل يونج)؛ والعوامل الخمسة لمكرى McCrae ولكوستا Costa (المرض العصبى) العصابية , والانبساط ، والانفتاح على التجربة، والقبول، والاجتهاد، و الأمزجة الثلاثة لبس Buss وبلمن Plomin من العاطفية ، والنشاط ، و الاختلاطية الاجتماعية. وبالإضافة إلى ذلك سمة زتشرمن Zucherman من البحث عن الاثارة (Sensation seeking [٣]) فى المقام الأول تتأثر بالعوامل الوراثية, وبالتالى يمكننا أن نرى أن نهج السمات بدأ منذ أكثر من نصف قرن، ولا يزال حيويا. ففى الواقع، هذا المجال هوالأسرع نموا فى بحوث الشخصية وكثير من الباحثين يعتبرها بأنها الأكثر أهمية لفهمنا للشخصية.

---

[١] فلسفة المذهب الثنائى الذى يحتوى على أن العقل والجسم يكون لهما تأثيرسببى على بعضهما البعض, كما هو الحال عند وخز إصبع شخص(مادى) يسبب ألم (عقلى)، أو ذاكرة محرجة (عقلى) تؤدى إلى أحمرارو جه المرء (مادى) http://www.thefreedictionary.com/interactionism

[٢] Duane Schultz , Sydney Ellen Schultz ,Theories of Personality , Brooks / Cole publishing company , 1998 , ITP , an international thoson publishing company, p 6, 10

[٣] البحث عن الاثارة هى سمة للشخصية يحددها البحث عن الخبرات والمشاعر، والتى هى "متنوعة، وجديدة، ومعقدة ومكثفة"، والاستعداد "لتحمل المخاطر المادية والاجتماعية والقانونية والمالية من أجل مثل هذه التجارب. " http://en.wikipedia.org/wiki/Sensation_seeking

ما يتبقى تعيينه هو تحديد كم عدد العوامل الموروثة بالضبط ؟ والصفات أو الأمزجة - عند كاتل Cattell ١٦، و إيسنك Eysenck ٣، و لمكرى McCrae وكوستا Costa ٥، بس Buss وبلمن Plomin ٣، أو بعض اعداد حتى الآن غير مكتشفة ؟ فالبحوث المستقبلية فى مجال علم الوراثة السلوك قد تسفر عن جوانب إضافية من السمات التى تتشكل بفعل عوامل موروثة. فما نرثه هى ميول، وليست مصائر؛ نزعات، وليست ثوابت.

العامل البيئى:

كل واضعى نظريات الشخصية أقروا بتأثر الشخصية بيئتنا الاجتماعية ,وبالنظرفى بعض الأمثلة.

اولدرAlder تكلم على أهمية ترتيب الولادة، بحجة أن شخصيتنا تتأثر بموضعنا فى الأسرة نسبة إلى اشقائنا, وأشار إلى كيفية أن البيئة الاجتماعية التى نتعرض إليها تختلف كدورترتيب الولادة ومدى فارق السن بين الأشقاء , أو إذا لم يكن لدينا أشقاء على الإطلاق, وفى رأى أدلرأن هذه البيئات المنزلية المختلفة يمكن أن تؤدى إلى شخصيات مختلفة.

هورنى Horney اعتقدت أن الثقافة والفترةالزمنية التى يتم فيها تربيتنا يمكن أن تنتج شخصيات مختلفة، كما رأت فى الإضطرابات العصبية المختلفة التى ظهرت عند المرضى الألمان والأمريكان. وأشارت هورنى أيضا إلى البيئات الاجتماعية المختلفة إلى حد كبير التى يتعرض إليها الفتيان والفتيات كأطفال, وتحدثت عن شعور النساء الأقل شأناً نتيجة الطريقة التى يتم التعامل معهن فى ثقافة يهيمن عليها الذكور,أما النساء التى تربين فى ثقافة الأم الحاكمة يشعرن على نحو أفضل بأنفسهم ولهن خصائص شخصية مختلفة.

أما فروم Fromm فأعتقد أن الناس تتأثر على نحو أكبربالقوى التاريخية والأحداث، فضلا عن ذلك نوع المجتمع المبنى. فكل فترة من التاريخ كما قال - مثل العصور الوسطى، وعصر النهضة، والإصلاح البروتستانتى، والثورة الصناعية – ساعدت فى تشكيل شخصية مختلفة أو أنواع شخصيات، مناسبة لاحتياجات العصر التاريخى.

حتى ألبورت Allport وكاتل Cattell الذين افتتحا نهج السمة على دراسة الشخصية اتفقا على أهمية العامل البيئى. وأشار ألبورت أنه على الرغم من أن علم الوراثة هوالمادة الخام الأساسية لشخصيتنا، فهناك البيئة الاجتماعية التى تشكل المادة الخام إلى المنتج النهائى, كاتل جادل بأن الوراثة هى الأكثر أهمية بالنسبة لبعض العوامل الشخصية، ولكن البيئة هى الأكثر أهمية مع الآخرين, واعترف بأن العوامل البيئية تؤثر فى نهاية المطاف على كل جانب.

وأشار إريكسون Erikson إلى أن مراحله الثمانية للتطور النفسى والاجتماعى هى فطرية، ولكن البيئة تحدد الطرق التى تتحقق بها تلك المراحل المحددة وراثياً, كما أعرب عن اعتقاده بأن القوى الاجتماعية والتاريخية تؤثر فى تشكيل هوية الأنا وبالتالى الشخصية . كما أن ماسلو Maslow وروجرزRogers أكدا أن تحقيق الذات فطرى ولكنهم أقرا بأن العوامل البيئية يمكن أن تمنع أو تعزز نمو الحاجة بتحقيق الذات.

فالأحداث الاجتماعية واسعة النطاق مثل الحروب والركود الاقتصادى يمكن أن تقيد خيارات حياتنا وتؤثر فى تشكيل هوياتنا, فأكثر تغييرات الحياة العادية - مثل أن تصبحوا آباء، الطلاق، أو تغيير الوظائف - يمكن أن يؤثر أيضا على الشخصية, على سبيل المثال، بعض النساء اللاتى لديهن أطفال يصبحن أقل قبولا للذات وأجتماعية من النساء اللاتى ليس لديهن أطفال, وبعض النساء المطلقات يظهرن كناتج ازدياد فى تطويرالأنا لا تظهر فى العينة المقارنة من النساء اللاتى لا يزلن متزوجات, والأشخاص الذين يعملون فى وظائف أكثر تعقيدا وتطلبا يبدون قدرا أكبر من الثقة بالنفس ومشاعر التحكم من أولئك الذين يعملون فى وظائف أقل تطلبا (هلسن Helson وستيوارت Stewart ، ١٩٩٤).

وأخيرا خلفيتنا العرقية - سواء كنا جزء من ثقافة الأقلية أوالأغلبية- تؤثرعلى شخصيتنا. فنحن نرى أمثلة على الاختلافات العرقية فى متغيرات مثل البحث عن الاثارة، ومركز السيطرة، ومجالات النجاح التى يمكن أن تلبى الحاجة للإنجاز. ونعلم أيضا أن أعضاء جماعات الأقليات قد يضطرون إلى تطوير الهوية العرقية وكذلك هوية الأنا، ويتكيفون مع كلا الثقافات التى ينتمون إليها, فالدلائل تشير إلى أن أولئك القادرين على التكيف قادرون على الحصول على شعوربالكفاءة داخل كلا الثقافتين دون تقييد أنفسهم بهوية عرقية واحدة , فهم أكثر عرضة لصحة نفسية أفضل من أولئك الذين ليسوا قادرين على التكيف (لافرامبوز LaFramboise ، كولمانColeman وجرتن Gerton ،١٩٩٣).

وبالتالى فإنه من المستحيل أن ننكر التأثير الكبير للقوى البيئية والاجتماعية المتنوعة بما تمارسه على الشخصية، والطريقة الرئيسية التى تمارس تأثيرها تتم من خلال التعلم .[1]

[1] مرجع سابق ص , ٤٧٠ , ٤٧١

عامل التعلم:

وهناك أدلة قاطعة بأن التعلم يلعب دورا رئيسيا فى التأثير فعليا على كل جانب من جوانب سلوكنا, فجميع القوى الاجتماعية والبيئية التى تشكل الشخصية تقوم بذلك عن طريق تقنيات التعلم. حتى الجوانب الموروثة للشخصية فى المقام الأول يمكن تعديلها، تعطيلها، منعها من التطور، أو السماح لها لتزدهر، من خلال عملية التعلم.

سكينرSkinner (على أساس العمل السابق لواتسون Watson وبافلوف Pavlov) علمنا أن قيمة التعزيز الإيجابى، والاقتراب المتعاقب، والسلوك الخرافى، والمتغيرات التعليمية الأخرى فى التأثير على ما يدعوه الآخرون بالشخصية، ولكنه يصفه ببساطة على أنه تراكم لردود فعل متعلمة.

عرض باندوراBandura مفهوم التعلم بالملاحظة،وهى فكرة أننا نتعلم من مشاهدة الآخرين (نماذج)، من خلال التعزيزالغير مباشر. و رترRotter عرض نهجا للشخصية الذى فيه التعزيزهو المحدد الرئيسى, وناقش بأن دافعنا الرئيسى هو تعظيم التعزيز الإيجابى, واتفق باندورا ورتر مع سكينر بأن معظم السلوكيات تعلم وأن العامل الوراثى يلعب دورا ثانوياً فقط.

فحاجة ماكليلاند McClelland للإنجاز , بالإضافة إلى ذلك المفاهيم الموثقة جيدا عن الكفاءة الذاتية (باندورا)، ومركز السيطرة (رتر)، وتعلم العجز (سليجمانSeligman) تتأثر بالتعلم.

يبدو أن هذه المفاهيم تكون متصلة بمفهوم أوسع على نحو متزايد بحيث تدرك بأنها من الأهمية لدراسة الشخصية , هذه المسألة هى**التحكم**. فالناس التى تعتقد أن لديهم السيطرة على حياتهم على نحو عالٍ فى الكفاءة الذاتية ولديهم مركز السيطرة الداخلى، ولايتميزون بالعجز المكتسب (الذى ينطوى على عدم وجود السيطرة), فمن حيث تعبير سليجمان، الناس الذين يعتقدون أنهم مسيطرون متفائلون بدلا من كونهم متشاؤمين.

السيطرة مفيدة للغاية فعليا فى كل جانب من جوانب الحياة وتمثل واحدة من أكثر التطورات إثارة فى السنوات الأخيرة. فالدرجة العالية من السيطرة ارتبطت بوجود العديد من العوامل شاملة آليات التعامل الأفضل ، وآثارا أقل للتوتر، وزيادة الصحة النفسية والجسدية والمثابرة وطموحات أكبر واحترام الذات، وانخفاض القلق، و درجات أعلى للصحة العقلية والبدنية، والمثابرة ودرجات أعلى، وزيادة المهارات الاجتماعية والشعبية.

فالتحكم (السيطرة) أيا كانت تسمى - بالكفاءة الذاتية، المركزالداخلى للسيطرة، أوالتفاؤل - يبدو أنه محدد بالعوامل الاجتماعية والبيئية, وهويعلم فى مرحلة الرضاعة والطفولة،على الرغم من أنه يمكن أن يتغير فى وقت لاحق من الحياة.

عامل الوالدين:

على الرغم من أن فرويد كان واضع النظرية الأول الذى أكد على الدور الرئيسى لتأثيرات الوالدين فى تشكيل الشخصية، كل منظر للشخصية عمليا جاء ليردد وجهات نظره. ريكول أدلر Recall Adler ركز بشأن العواقب الناتجة بالنسبة للطفل الذى يشعر بأنه غيرمرغوب فيه أو مرفوض من والده أو والدته, فمثل هذا الرفض من الوالدين يؤدى إلى عدم وجود الحب والأمان، الأمر الذى يترك الشخص شعور بأنه لا قيمة له، وبالغضب، والافتقار إلى الثقة بالنفس.

فقد كتبت هورنى Horney (استنادا إلى تجربتها الشخصية) حول كيفية أن عدم وجود دفء الوالدين والعطف يمكن أن يضعف أمن الطفل ويؤدى إلى شعوره بالعجز. كما ناقش فروم Fromm بأنه كلما أصبح الطفل أكثر استقلالية من الروابط الأساسية مع والدته أو والده، يصبح الطفل غيرآمنٍ أكثر.

كما أن ألبورت Allport وكاتلCattell الذين استند عملهما إلى أهمية السمات أيضا أدركوا تأثيرعامل الأبوين, فقد اعتبر ألبورت علاقة الرضيع مع الأم بأنها المصدر الرئيسى للعاطفة والأمن، ومن الشروط الحاسمة لنمو الشخصية فيما بعد, رأى كاتل الفترات الأولى من الطفولة باعتبارها الفترة التكوينية الكبرى، فمع سلوك كلا الوالدين والأشقاء على حد سواء يتشكل شعورالطفل بالأمان.

واحتفظ إريكسون Erikson على علاقة الطفل مع الأم فى السنة الأولى من الحياة بالأمر الحيوى فى تشكيل موقف الثقة تجاه العالم. وعلّق ماسلو Maslowعلى مدى أهمية تلبية الآباء والأمهات احتياجات طفلهم الفسيولوجية والأمنية فى العامين الأولين من الحياة كشرط مسبق لظهور الاحتياجات العليا. وتكلم روجرRogers على ضرورة تزويد الآباء باهتمام إيجابى غير مشروط لأبنائهم.

أيضا شهدنا أمثلة لكيفية إمكان تأثير السلوكيات الأبوية حتى إنها تقررجوانب محددة للشخصية، مثل الحاجة إلى الإنجاز، الكفاءة الذاتية، مركزالسيطرة، وتعلم العجز أوالتفاؤل, فسلوك الوالدين يمكن أن يؤثرعلى السمة الموروثة فى الأصل مثل البحث عن الإثارة. هذا يتطلب القليل من الخيال لتحقيقه، على سبيل المثال الطرق القاسية والعقابية التى يمكن أن يخنق الآباء بها الصفات الموروثة مثل الانبساط ،الاختلاط الأجتماعى، القبول، والانفتاح على التجربة.

ومن الاستعراض على الأبحاث حول العلاقة بين خبرات الطفولة المبكرة وعلم نفس المرضى للكباراتضح باستمرارأن طفولة البالغين من المكتئبين والقلقين تميزت بالتربية غير الملائمة, ووجدوا الوالدين أكثر رفضاً وإساءة، وأقل رعاية ومحبة، من الوالدين البالغين الأقل تعثرا (بروينBrewin ، أندروزAndrews ، وجوتليب Gotlib،١٩٩٣).

فنجد بوضوح الثكنات التى تشبه ترتيبات النوم (مثل ما يجرى فى المخيم أو المدرسة الداخلية) فى مرحلة الطفولة المبكرة أدت إلى شخصية أكثر قلقا، مقيدة، ومسطحة عاطفيا. البالغون الذين قضوا طفولتهم فى مثل هذا النسق فقد فشلوا فى توثيق علاقة مع القائمين على رعايتهم وأبدوا قدرات متضائلة فى إقامة صداقة، وانخفاض فى القوة العاطفية فى العلاقات الشخصية، والميل إلى الانطواء (افيذرAviezer، فان ايدزندورن van Ijzendoorn، ساجى sagi، و سكوجالSchuegal،١٩٩٤).

وبالتالى فإن كل من لديه المسؤولية الرئيسية فى تربية الأطفال- سواء ولادة أو الآباء بالتبنى أو بديل الوالدين- فهم فى وضع يمكنهم من التأثيرعلى شخصية الطفل.

العامل التطورى:

اعتقد فرويد أن كل شيء عن الشخصية الإنسانية جامد ويتشكل بالكامل عند سن ٥ سنوات، وأنه من الصعب أن يتغير بعد ذلك. ونحن نعلم أن سنوات الطفولة مصيرية بوضوح فى تشكيل الشخصية، ولكن أيضا من الواضح أن الشخصية تتواصل فى التطوير فيما بعد الطفولة - ربما طوال فترة الحياة بأكملها.

فمنظروا الشخصية الآخرون – مثل كاتل Cattell ، البورت Allport ، إريكسون Erikson ، وموري Murray – رأوا أيضا الطفولة لها أهميتها فى تشكيل الشخصية، لكنهم اتفقوا على أنها تتطور ويمكن أن تعدل بعد سنوات الطفولة. وبعض المنظرين أشاروا إلى نموالشخصية فى مرحلة المراهقة. يونج Jung ، ماسلوMaslow ، إريكسون Erikson ، وكاتل Cattell ركزوا على منتصف العمر كفترة رئيسية للتغيير فى الشخصية, المشكلة الأساسية هنا هى فقط إلى متى الشخصية تستمرفى التغيير والنمو, اليست شخصيتك فى سن ٢٠ أو ٣٠ تشير إلى ما سوف تكون عليه عند سن ٤٠ أو ٦٠؟ كما هو الحال مع معظم الأسئلة المتعلقة بالشخصية، تحولت إلى أن تكون معقدة للغاية.

يبدو أن أساس الشخصية الأساسى للنزعات الدائمة (مثل السمات التى وصفها مكرى McCrae و النماذج الخمسة لكوستا) تبقى هى نفسها على الأقل على مدى فترة من سنوات عديدة. وفقا لمعظم الأدلة المتاحة حتى الآن هذه السمات والقدرات الأساسية يبدو أنها تكون مستقرة من العمر ٣٠ لفيما بعد. ما يمكن أن يتغير هى الطريقة التى نختارها لإظهار هذه الخصائص.

لذا ما الذى يسبب تغيرات فى الشخصية أو التطورفى مرحلة البلوغ؟ يكمن الجواب فى طبيعة العوامل الاجتماعية والبيئية التى تمت مناقشتها، وطبيعة التعديلات التى علينا القيام بها لإدارتها أو التعامل معها, التغيرات فى الظروف الاقتصادية، ترك الكلية، الزواج والأبوة , الطلاق ,فقدان الوظيفة أوالتقدم فى العمل ، وأزمات منتصف العمر، شيخوخة الوالدين - كلها أمثلة من المشاكل التى نحن كبالغين يجب أن نتكيف معها. وجميعها تترك بصماتها على شخصيتنا, أو على الأقل يمكن أن تغير جزء من شخصيتنا . هذا هو الموقف الذى اتخذه منظرو الشخصية المعاصرون الذين اقترحوا ثلاثة مستويات للشخصية : السمات الطبعية dispositional traits ، والاهتمامات الشخصية personal concerns , و قصة الحياة life narrative (مكأدامسMcAdams ، ١٩٩٤).

المستوى الأول السمات الطبعية, ترجع إلى الصفات الموروثة من النوع الذى ناقشه مكرى وكوستا، الخصائص الشخصية التى وجدت لتظل مستقرة وغير متغيرة نسبيا من حوالى سن ٣٠ لما بعد.

المستوى الثانى من الشخصية، الاهتمامات الشخصية، ترجع إلى مشاعرنا الواعية، وخططنا، وأهدافنا- ما نريده، وكيفية محاولة تحقيق أو بلوغ ذلك، وما نحن مهتمون به، وكيف نشعر حول الناس فى حياتنا.هذه المشاعر والخطط والأهداف تتغير ربما إلى حد كبيروبشكل متكرر، على مدى الحياة كنتيجة للقوى الاجتماعية والبيئية التى نتعرض لها.

مع ذلك سماتنا الطبعية الكامنة - على سبيل المثال المستوى الأساسى من الاضطراب العصبى أو الانبساط أو الاجتهاد الذى به نواجه مواقف الحياة تبقى نسبيا دون تغيير.

المستوى الثالث من الشخصية هو قصة الحياة، وترجع إلى تشكيل أو صياغة الذات، وتحقيق الشعور بالهوية، وإيجاد الوحدة، والتماسك، والهدف فى الحياة. فنحن باستمرار نخلق قصة حياة من نحن ؟ وكيف ننسجم مع العالم؟ مثل اهتماماتنا الشخصية قصة الحياة تتغير فى استجابة للمطالب المتغيرة لبيئتنا ,ككبار نحن نتشكيل ونعيد تشكيل قصتنا كلما تجلى فترة من الحياة ، لأن كل مرحلة تجلب مطالب مختلفة، وتحديات، وفرص نتعامل معها.

ومن هذه الرؤية إذن جزء من شخصيتنا – السمات الطبعية الكامنة – تبقى مستمرة، فى حين أن أحكامنا الواعية حول من نحن ؟ وما الذى نود أن نكون عليه ؟ هى عرضة للتغيير.[1]

عامل الوعى:

تقريبا كل نظرية للشخصية وصفناها تتعامل مع العمليات الواعية أو المعرفية، إما بوضوح أو ضمنيا. حتى فرويد ويونج ، اللذان ركزا على اللاوعى، تكلما على الأنا أو العقل الواعى الذى يدرك، ويفكر، ويشعر، ويتذكر- العقل الواعى هو الذى يُمكّننا من التفاعل مع العالم الحقيقى, فعلى سبيل المثال من خلال الأنا نحن قادرون على إدراك المثيرات وتذكرها فى وقت لاحق أو تذكر صورها. كتب يونج Jung عن الأداء العقلانى الذى ينطوى على صنع الأحكام الواعية والتقييمات لتجاربنا.

وأولدرAlder أكد أننا واعون، وكائنات عاقلة قادرة على تخطيط وتوجيه مستقبلنا, وناقش أننا نحن نصوغ آمالنا وخططنا وأحلامنا, أيضا نحن نؤخر الإشباع، ونتوقع بوعى أحداث المستقبل. كما ناقش ألبورت Allport أن الناس العاديين (أولئك الذين لا يعتبرون عصابيين) يعملون فى شروط واعية وعقلانية, وهم يدركون وفى سيطرة على العديد من القوى التى تدفعهم. أيضا اعتقد روجرزRoger أن الناس فى المقام الأول عاقلون ، يحكمون بإدراك واعٍ أنفسهم وعالمهم التجريبى. ونظرية ماسلو Maslow تتضمن اقرار الوعى; وقدم اقتراح الاحتياجات المعرفية لكى نعرف ونفهم.

أما كيلى Kelly عرض التركيزالأكثر اكتمالا على العوامل المعرفية, وناقش بشكل مقنع بأننا نشكل افكارا حول بيئتنا وحول الأشخاص الآخرين، وأننا نبنى توقعات عن الناس والأحداث استنادا إلى هذه الأفكار, كما نحن نصوغ الفرضيات حول محيطنا ونختبرها بالمقابلة لواقع تجربتنا. وبناءاً على الأدلة اليومية، من الصعب أن ننكر أن الناس تفسر، وتتنبأ، وتتوقع كيف يمكن للآخرين أن يتصرفوا فى مواقف معينة، ومن ثم يتغير سلوكهم وفقا لذلك.

باندورا Bandura ينسب للناس القدرة على التعلم من خلال القدوة و التعزيزغيرالمباشر, وللقيام بذلك يجب أن نكون قادرين على توقع وتقدير النتائج المترتبة على السلوك الذى نلاحظه مع الآخرين. ففى رأى باندورا نحن نتصور أو نتخيل النتائج المترتبة على التصرف بنفس الطريقة التى يفعلها النموذج, على الرغم من أننا قد لا نكون قد جربنا تلك النتائج شخصيا. ويعتقد رتر Rotter أننا ندرك أنفسنا ككائنات واعية, قادرون على التأثير فى تجاربنا, ونحن قادرون على تشكيل توقعات واعية محتملة لتعزيزاتباع سلوك معين، وتقدير احتمال أن التصرف بطريقة معينة سوف يؤدى إلى تعزيز معين.

وبالتالى هناك اتفاق واسع النطاق بين هؤلاء المنظرين على أن الوعى موجود ويمكن أن يؤثر فى الشخصية. وهناك اتفاق أقل مع ذلك، على دور أو حتى على وجود عامل آخر قد يؤثر على الشخصية وهو اللاوعى.

عامل اللاوعى:

قدم سيجموند فرويد لنا عالم اللاوعى كما ينظر إليه على أنه مظلم، مستودع مخيف من أحلك المخاوف والصراعات. قوى تؤثر على أفكارنا الواعية وسلوكنا. فهناك بعض الأدلة البحثية تدعم فكرة فرويد بأن الأفكار والذكريات يمكن أن تقمع فى اللاوعى, وأن القمع (وكذلك بعض آليات الدفاع الأخرى) قد يعمل على مستوى اللاوعى.

فعلى طول الحركة المعرفية فى علم النفس لم تكن لديها أهتمام فقط فى العمليات الواعية ولكن أيضا لها اهتمام متجدد فى اللاوعى. فالبحوث الحديثة تؤكد أن اللاوعى هو قوة ضخمة، بل وربما الأكثر انتشارا فى نفوذها من رأى فرويد, ومع ذلك فإن هذا التصور الحديث للاوعى ليس هو نفسه كما فى رأى فرويد. فالباحثون المعاصرون يركزون على العمليات المعرفية اللاواعية والتى وصفوها بأنها أكثر عقلانية من العاطفية.

فغالبا ما يشار إلى هذا اللاوعى العقلانى الجديد على أنه *nonconscious* لتمييزه عن لاوعى فرويد – الذى سماه بالقِدرالكبيرالمظلم من الأمنيات المكبوتة والرغبات. فالطريقة لدراسة اللاوعى العقلانى ينطوى على التفعيل نصف الواعى subliminal activation, وباستخدام هذا النهج يتم عرض محفزات مختلفة للتابعين دون مستوى الإدراك الواعى. وعلى الرغم من عدم قدرة التابعين على إدراك المحفزات فعملياتهم الواعية وسلوكهم يتأثر أويتم تفعيله من خلال تلك المثيرات. والنتيجة الواضحة التى يمكن استخلاصها من هذه البحوث هى أن الناس يمكن أن تتأثر بمحفزات لا يمكنهم أن يروها ولا حتى أن يسمعوها (جرينوالد Greenwald ,١٩٩٢).[2]

- صور من الطبيعة البشرية: قضايا في نظرية الشخصية:-

جانبا مهما من أى نظرية للشخصية هى صورة الطبيعة البشرية التى عبر عنها صاحب النظرية. فكل صاحب نظرية لديه تصور للطبيعة البشرية التى تعالج عدد من الأسئلة الأساسية مثل القضايا التى تركز على جوهر ما يعنيه أن تكون إنسانا. على مر القرون الشعراء والفلاسفة والفنانون صاغوا وأعادوا صياغة هذه الأسئلة، ونحن نرى محاولاتهم للرد عليها فى كتبنا

---

[1] مرجع سابق , ص ,٤٧٥

[2] مرجع سابق ص ، ٤٧٥ ، ٤٧٦

الرائعة وفى اللوحات.كما أن منظرى الشخصية أيضا قد تناولوا هذه الأسئلة المقلقة و لم يتوصلوا إلى أى توافق فى الآراء أزيد من الفنانين أو الكتاب. فالصورالمختلفة للطبيعة البشرية التى قدمها المنظرون تسمح للمقارنة ذات المغزى لوجهات نظرهم, هذه المفاهيم لا تختلف عن النظريات الفردية، بل هى ضمن الأطر التى ينظرفيها المنظرون إلى أنفسهم وغيرهم من الناس والتى ضمنها بنوا نظرياتهم.

الإرادة الحرة أم الحتمية؟Free will or determinism :-

القضية الأساسية التى تحدد صورة الطبيعة البشرية تهتم بالجدل القديم بين الإرادة الحرة والحتمية. فالمنظرون من كلا الجانبين سألوا الأسئلة التالية : هل نوجه بوعى مسار أفعالنا؟ هل يمكننا عفويا اختيار اتجاه تفكيرنا وسلوكنا، والاختيار بعقلانية بين البدائل؟ هل لدينا وعى مدرك وعلى قدر من ضبط النفس؟ هل نحن أسياد مصيرنا أم نحن ضحايا للخبرة الماضية، وللعوامل البيولوجية , وقوى اللاوعى، أو المحفزات الخارجية - قوى علينا بحيث لا نملك السيطرة الواعية عليها ؟ هل شكلت الأحداث الخارجية شخصيتنا بحيث أننا غير قادرين على تغيير سلوكنا ؟

بعض منظرى الشخصية اتخذوا مواقف مبالغة فى هذه القضية, وآخرون عبروا بوجهات نظر أكثر اعتدالا مجادلين أن بعض السلوكيات حددتها أحداث ماضية وبعضها يمكن أن يكون عفويا وتحت سيطرتنا.

الطبيعة أم التنشئة؟Nature or Nurture :-

القضية الثانية لها علاقة مع جدل الطبيعة والتنشئة. أيهما له تأثير أكثر أهمية على السلوك : السمات الموروثة (طبيعتنا أوالاستعداد الوراثى) أم ملامح بيئتنا (تأثيرات التنشئة من تربيتنا، وتعليمنا، وتدريبنا)؟ هل شخصيتنا حددت بقدراتنا وميولنا، واستعدادنا الوراثى، أم أننا نتشكل بقدر أكبر بسبب الظروف التى نعيش فيها؟ الشخصية ليست الموضوع الوحيد الذى تأثر بهذه المشكلة. فالجدل أيضا موجود حول مسألة الذكاء: هل الذكاء يتأثر أكثر بالاستعداد الوراثى (الطبيعة) أم من خلال تحفيز يقدمه المحيط المنزلى والمدرسى (التنشئة)؟

كما هو الحال مع مسألة الإرادة الحرة والحتمية، البدائل لا تقتصر على المواقف المبالغة. فكثير من المنظرين يفترضون أن الشخصية تتشكل بواسطة كلا المجموعتين من القوى. والبعض يرى الوراثة هى التأثير المهيمن والبيئة ذات أهمية ثانوية، والبعض الآخر يرون عكس ذلك.

- الماضى أم الحاضر؟Past or Present:-

القضية الثالثة تنطوى على الأهمية النسبية للأحداث السابقة مثل تجاربنا فى مرحلة الطفولة المبكرة مقارنةً مع الأحداث التى حدثت فى وقت لاحق من الحياة. ماهو المُشَّكل الأكثر قوة للشخصية؟ لو افترضنا كما فعل بعض المنظرين أن ما حدث لنا فى مرحلة الرضاعة والطفولة أمر حاسم لتشكيل الشخصية، وبالتالى يجب علينا أن نؤمن بأن التطور اللاحق هو أقل كثيرا من مجرد تفاصيل للموضوعات الأساسية الموضوعة فى السنوات الأولى من الحياة. وتعرف هذه الفكرة بالحتمية التاريخية historical determinism, فشخصيتنا (هذا الخط من التفكير يذهب إلى) أنها مثبتة فى الغالب من سن ٥ سنوات أو نحو ذلك، وتخضع لتغيير بسيط على مدار بقية حياتنا. فشخصية البالغ هى محددة وفقا لطبيعة هذه التجارب فى وقت مبكر.

الموقف المعاكس يرى أن الشخصية تكون أكثر استقلالا من الماضى، وقادرة على أن تتأثر بالأحداث والتجارب فى الحاضر فضلا عن تطلعاتنا وأهدافنا للمستقبل. أما الموقف المتوسط اقترح أنه يمكن أن نفترض أن التجارب الأولى تشكل الشخصية ولكن ليس بشكل صارم أو بشكل دائم , فالتجارب اللاحقة قد تعمل على تعزيز أو تعديل أنماط الشخصية المبكرة.

- التفرد أم عمومية؟ Uniqueness or Universality :-

هل الطبيعة البشرية فريدة من نوعها أم عمومية ؟ هذه قضية أخرى قسمت منظرى الشخصية. حيث يمكن اعتبار الشخصية بأنها فردية تبعا لكل شخص وتصرفه, فكل تعبير لا يوجد لديه نظيره أو ما يعادله فى أى شخص آخر, ومن الواضح أن إجراء مقارنة بين شخص مع آخر لامعنى لها, ومواقف أخرى تسمح للتفرد ولكن تفسر ذلك فى أنماط شاملة للسلوك المقبول على نحو عالمى، وعلى الأقل فى سياق ثقافى محدد.

- التوازن أم النمو؟Equilibrium or Growth :-

القضية الخامسة تنطوى على ما نسميه أهداف الحياة النهائية والضرورية. اختلف المنظرون حول ما يشكل الدافع الرئيسى لدينا فى الحياة, هل نحن مجرد نوع من آلية تنظيم ذاتى ومحتوى طالما يتم الحفاظ على بعض التوازن الداخلى أو التعادل ؟ هل نحن نعمل لتلبية الاحتياجات المادية للحصول على اللذة وتجنب الألم؟ هل سعادتنا تعتمد على حفظ التوترإلى الحد الأدنى؟

بعض واضعي النظريات يعتقدون أن الناس حيوانات محدة للتوتر ساعية للمتعة ,الآخرون ينظرون لنا بأننا مدفعون فى المقام الأول بالحاجة إلى النمو، وتحقيق كامل طاقتنا، وللوصول إلى مستويات أعلى من أى وقت مضى من التعبير عن الذات والتطور.

- التفاؤل أو التشاؤم؟Optimism or Pessimism:-

قضية واحدة إضافية تعكس نظرة واضع النظرية عن الحياة. نحن يمكن أن نسميها التفاؤل مقابل التشاؤم, هل البشر أساساً أخيار أم أشرار، طيبون أم قاسون , رحماء أم عديمو الرحمة؟ هنا نحن نتعامل مع مسألة أخلاق، وحكم القيمة، والتى من المفترض أن لا مكان لها فى العالم الموضوعى والنزيه للعلوم, ومع ذلك فقد تم التعامل مع هذه المسألة ضمنيا على الأقل من قبل العديد من المنظرين. بعض آراء المنظرين عن الشخصية الإنسانية هى أكثر إيجابية وأملا عن غيرهم، فيصورنا كإنسانيين، محبى الإيثار، واعيين اجتماعيا, ومنظرون آخرون يجدون عدد قليل من هذه الصفات فى البشر، سواء بشكل فردى أو جماعى.[1]

- **نماذج من تنظير الشخصية:-**

بسبب الاعتبارات الثلاثة – الجوهرية ، والمحطية,والانمائية التى تظهر بانتظام فى نظريات الشخصية، مثل هذه النظريات محاولات معقدة وشاملة وكلية لفهم السلوك البشرى.

توصلت إلى ثلاثة نماذج تنظير عريضة قابلة للتنفيذ: الصراع ,الإنجاز، والاتساق.

- **نموذج الصراع THE CONFLICT MODEL :-**

على المستوى الجوهرىcore، النموذج الصراعى يفترض أن كل شخص بأمر لا مفر منه وقع فى اشتباك بين قوتين كبيرتين كما هو محدد تعملان باستمرار، وهما بالضرورة متعارضتان، وغير قابلتين للتغيير.على سبيل المثال، أنت تستخدم التنظير الصراعى إذا كنت تفترض أن الناس يولدون ليس فقط مع محرك فطرى نحو الإيثار ولكن أيضا مع محرك معارض نحو الأنانية, إذا أجريت هذا النوع من الافتراض فإن بقية التنظير عن السلوك البشرى تعكس صراعا أساسيا غير قابل للحل،لأن هذين المحركين الفطريين يؤديان إلى اتجاهين سلوكيين متعارضين, على الرغم من أن نموذج الصراع رؤية مأساوية حقة للحياة، حيث لا يمكنك الحصول على ما تريد تماما، فقد كانت شائعة جدا فى تنظير الشخصية.

على المستوى المحيطى peripheral، وفقا لنموذج الصراع، فإن أفضل ما يمكن أن يتحقق من حيث نمط الحياة هو حل وسط, فنمط الحياة المثالى ينطوى على التوازن الديناميكى للقوتين المتعارضتين، مع كل منهما نحصل على تعبير متساوٍ أكثر أوأقل.

أنماط الحياة الأقل مثالية تنطوى على محاولة لإدانة مسبقة إلى إنكار وجود واحدة من القوى المتعارضة بشكل قاطع بينما تعبر عن الآخرى. على سبيل المثال قد ينكر الناس الجزءالأنانى من أنفسهم ويكونوا على وعى من التعبير فقط عن الجزء الإيثارى, بينما الذى يبدو أنه قديسى هو عدم القدرة على التعبير عن الأنانية الفطرية التى سوف تطاردهم مما يمكن أن يظهر التوتر غير القابل للتفسير أو كراهية الذات، محددا نمط الحياة بغير المثالى.

على مدى النمو development، نموذج الصراع يميل أيضا إلى التأكيد على حل وسط كمثالى. فالوالدان يجب أن يكونوا حريصين على عدم المكافأة ولاالعقاب لعدد كبير من تصرفات الطفل النامية، وذلك لأن الشباب بحاجة إلى أن يتعلم أن يعبر عن كل جوانب طبيعته الفطرية، ولكن الصراع الكامل قد يكون إذا كان والداه محاولين لقمع بعض السلوكيات الأخرى فى أبنائهم الصغار، لتعليمهم الاتساق الأكبر أو لأن بعض السلوكيات تبدوغير مقبولة ، فهى تشجيع على النشوءغيرالمثالى. هذا القمع للمحرك الفطرى غير القابل للتغيير قد يظهر تصاعدا فى التوتر، والقلق ، والتعاسة الغامضة ، وعدم القدرة على إيجاد هدف فى الحياة.

- النسخة النفسية الاجتماعية The Psychosocial Version:-

استخدم منظرون الشخصية نسختين من نموذج الصراع، والتى تختلف فى الدرجة إلى ما يمارسه المجتمع من تأثير على السلوك البشرى. فى كل منهما ينبع الصراع من القوتين الكبيرتين للنزعة الجوهرية. ففى النسخة النفسية والاجتماعية، تكمن قوة واحدة داخل كل فرد ولكن القوة الأخرى تكمن فى المجموعات أوالمجتمعات، وهذا هوما تمارسه قوة واحدة من متطلبات على السلوك الفردى، فى حين أن القوة الأخرى تمارس متطلبات على أداء المجموعة . فى هذا النوع من التنظير تبرزالقوة الفردية كمعادٍ للمجتمع antisocial، فى حين أن القوة الاجتماعية تبرز باعتبارها محددا للصالح العام.

على الصعيد المحيطى، نظريات الصراع النفسى الاجتماعى لديها نهج منبه إلى حل وسط للتعبير عن الأداء المثالى .على وجه الخصوص، نمط الحياة المثالية ينطوى على أن الشخص فى التعبير عن كلا من القوى الكبرى المتصارعة، ولكن دون

---

[1] مرجع سابق ص ، ٣٣ ، ٣١

أى اعتراف أو وعى بالقوى المعادية للمجتمع. هذا النقص فى الوعى هو نتيجة واقية، وهى عملية من الكذب على الذات، مما يعنى أن الجماعات أو المجتمعات هى أقوى من الأفراد.

كما فى النمو، نظريات الصراع النفسى الاجتماعى مسلمة بأنه من الأفضل عند التفاعل بين الآباء والأطفال أن يعززوا فى الواقع من القصور الدفاعى بشأن الوعى للسلوكيات المعادية للمجتمع التى يعرب عنها! لذا إذا كنت اجتماعيا جيداً، نلبى حاجة التعبير عما يبلغ الأنانية دون أن يلاحظ منا ما يحدث فى الواقع. فى نظريات الصراع النفسى الاجتماعى تعتبر أنه من الأفضل أننا لا نعرف حقيقة أنفسنا.

- النسخة داخل النفس The Intrapsychic Version:-

فى نسخة داخل النفس من نموذج الصراع كل من القوى الكبيرة التى تنشأ فى داخل الشخص، بغض النظر عن ما إذا كانت هى أو هو بمثابة فرد أو كعضو فى المجتمع. نظرا أن النزعات الجوهرية الإيثار والأنانية، هذه المرة كلا النزعتان تمارسان الضغط للتعبير سواءكان الشخص وحده أو فى صحبة الآخرين. ففى نسخة داخل النفس، فإن هذا الشخص يكون فى صراع بقدر ما فى النسخة النفسية الأجتماعية، ولكن بدلا من التركيز على ان الفرد على الجانب المضاد ضد المجتمع، فإن هذا النهج يعرض جانبا من الفرد ضد الجانب الآخر منه.

فى مدى التنظير المحيطى، نمط الحياة المثالى لا يزال يعبر عن جميع النزعات الجوهرية المتضاربة ولذلك ستمثل نوعا من الحل الوسط. ولهذا فإن نسخة داخل النفس تؤكد الدفاعية أقل فى صياغة شروط التسوية. فالأشخاص المثاليون يمكن أن يكونوا فى الواقع إلى حد ما على علم من طبيعتهم المتصارعة , على الرغم من أنهم قد يعانوا أكثر من التناقضات الخاصة بهم.

على مستوى النمو، نظريات الصراع داخل النفس تؤكد على مثالية تلك التفاعلات بين الآباء و أطفالهم فى تعزيز قبول الجوانب المختلفة المتصارعة من الطبيعة البشرية، ولكن الأمر يعتبر خدعة للمنظرين لصياغة كيف أن إدراك الصراع الداخلى غير القابل للحل فى أمكانه تشكيل المثال الأعلى. نظريات الصراع داخل النفس هى بقدر النموذج المأساوى لنظريات الصراع النفسى الاجتماعى.

- **نموذج الإنجاز THE FULFILLMENT MODEL:-**

على المستوى الجوهرى،هناك قوة واحدة فقط كبيرة تقع ضمن الفرد. الحياة ينظر إليها كتعبير يزداد تدريجيا لهذه القوة, وهكذا إذا كانت القوة التى تم اختيارها هى الإيثار، فمن ثم النظرية ستفسر تكشف السلوك البشرى من خلال فترة الحياة باعتبارها تدريجيا تعبيرا أكثر اكتمالا , وفعالية وتطورا لهذا الميل الفطرى. وباختصار فإن الناس يصبحون أكثر فأكثر قريبين مما كانوا يعتزمون أن يكونوا عليه. بحكم طبيعته، إن نموذج الإنجاز أبسط وأكثر بطولية من نموذج الصراع .

على المستوى المحيطى، نظريات الإنجاز تجعل نمط الحياة مثاليا الذى يشكل تعبيرا أكبر على الأطلاق لقوة واحدة كبيرة, فأنت تتقبل وتحترم من تكون، وتبذل كل جهد للتعبير عن ذلك فى الحياة اليومية. فى المقابل التأثير الضال الناجم عن الوالدين والمجتمع ، وأنماط الحياة غير المثالية تمنع أو تعرقل التعبير عن القوة الكبيرة, بذلك تتعلم بخفض قيمة القوى الخاصة بك وتحاول منع التعبير عنها، وتفضل بدلا من ذلك أن تتناسب وتفعل ما يتمناه الآخرون لك القيام به.

بالتحدث إنمائيا, فإن نظريات الإنجاز ترى تلك التفاعلات مثالية مع الآباء التى تشجع فى الأطفال الإحساس بالقيمة الكامنة والاستعداد الجرئ لاتباع حدسهم فما يجب القيام به وعدمه. ويشتمل نمط الحياة المثالى الناتج استكشافا وخيالا أكثر، مع قليل من النقد الذاتى و تأنيب الضمير. وفى المقابل، يبنى النمو غير المثالى فى الأطفال نقصا فى الثقة بالنفس, والامتثال للأعراف الاجتماعية، وعدم الرغبة فى اغتنام الفرصة.

يعتبر نوع الصراع الذى لا يمكن تجنبه , والمستمر المقدم فى نموذج الصراع بعيدا عن المثالى فى نموذج الإنجاز. فى النهج الأخير، دائما ما يعبر الصراع عن النمو وأسلوب الحياة غير المثالى.أما إذا حدث ذلك الصراع بين الفرد والمجتمع، فإنه يعكس المزيد من الخطأ من جانب المجتمع عنه من جانب الفرد، ويكون فشل الفرد بسبب المجتمع. فمنظرو نموذج الإنجاز ظهروا كأنهم نقاد اجتماعيون طبيعيون. فى المقابل، أصحاب نظريات الصراع ولا سيما هؤلاء عن القناعة النفسية الاجتماعية، يعتبرون المجتمع ممارسا السيطرة الضرورية على الأفراد المعادين للمجتمع antisocial.

- نسخة التحقيق The Actualization Version :-

مثل نموذج الصراع فإن نموذج الإنجاز لديه نسختان. فى نسخة التحقيق ، القوة الكبيرة أوالنزعة الجوهرية تنتطوى على ما يفترض أن يكون عليه الفرد, فالعيش بغنى يعنى تجسيد الإمكانيات التى يجلبها الأشخاص معهم إلى العالم عند الولادة.

على المستوى المحيطى، نمط الحياة المتعلم هو إما التعبير الكامل عن الإمكانيات أو بعض النسخ الواهنة من هذا التعبير. فمن غير الضرورى القول بأن التعبير الكامل عن الإمكانيات هو أسلوب الحياة المثالية، فى حين التعبير الواهن ليس كذلك, ففى محاولة أن يصبح الأطفال على ما يريده الوالدان لهم،يفشل الأطفال فى التعبير عن الإمكانيات الخاصة بهم بالكامل.

وعندما يعبر الناس عن نمط الحياة المثالى سيكونون مرتاحين مع أنفسهم وكذلك و ودودين عموما فى تصرفاتهم تجاه الآخرين. كما إنهم لن يبحثوا باستمرار وراء بعض الأهداف بعيدة المنال، وسيكونون سعداء بدلامن ذلك بما يفعلونه, مقدرين، محبين، متفهمين تجاه الآخرين، وسوف يفضلون العلاقات الشخصية (على سبيل المثال ,الصداقات) عن المشاركة الأكثر تجريدا مع المؤسسات الاجتماعية (على سبيل المثال ,كونهم سياسين). ومن ناحية أخرى فإن مع نمط الحياة غير المثالى سيشعرون بالإحباط وعدم الانجاز ، وطوال الوقت سيسعون لتحقيق أهداف بعيدة المنال واستحسان المجتمع، دون الكثير من التعبيرعن أنفسهم.

- نسخة الكمالTHE PERFECTION VERSION :-

على النقيض من نسخة التحقيق نسخة الكمال لنموذج الإنجازلم تؤكد على الإمكانيات المحددة وراثيا كثيرا بقدر ما هى افتراضات شاملة لما هوعلى ما يرام، وممتاز، وذو مغزى فى حياة الإنسان. فالقوة الكبيرة تضغط على الناس للسعى نحو المثل العليا ideals من الكمال بغض النظر عن ما إذا كانت تنطوى على التعبير عن نقاط قوتهم الوراثية الخاصة أو الدونية. فمنظرو تحقيق الكمال افترضوا أن إيجاد شعور حى لمعنى الحياة هو الهدف الأسمى، عن ما نحن موجهون إليه بشكل طبيعى.

منظرو الكمال ميزوا النموdevelopment بالكفاح, فبالنسبة للمنظرى التحقيق , التطورهو تعبير سهل وطبيعى عن الإمكانيات الموجودة، طالما أن الشاب يحصل على التقدير والحب غير المشروط من الآباء والأمهات. فى المقابل فيما يتعلق بمنظرو الكمال التطورهو عملية مستمرة من تحسين الذات التى غالبا ما تكون مؤلمة بسبب الحاجة للمعرفة من فشل الشخص, فلكى تكون قادرا على القيام بذلك يحتاج الشاب إلى قوة داخلية أوشجاعة للحفاظ على السعى نحو المثل العليا المطلوبة.

على الصعيد المحيطى، كما يؤكد أصحاب نظرية الكمال أن نمط الحياة المثالى للشخصية الفردية ، يقيم فيه الأشخاص خياراتهم بأنفسهم فى محاولة للحصول على أقرب قدرمن الأهداف العامة التى تعبرعنهم, على الرغم من أنهم قد يواجهون الجزع كتوجيه المياه العشوائية ، لكنهم سوف يشعرون بكثير من الحيوية والإثارة أيضا، لأن كل ما أنجز سيشعرهم بأنه من عملهم الخاص بهم , وبناءً على اختيارهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية ستكون قريبة وشخصية, كل ما سيقومون به سيظهرموقفا بناءً ، وتعاونياً. وسوف يميلون إلى أن يكونوا مشاركين فى نسيج المجتمع، معبرين عن رغباتهم واحترامهم لحقوق الآخرين، و يسعون دائما إلى تحسين أنفسهم والآخرين والمجتمع فى نفس الوقت.

أما أولئك الذين لديهم أنماط الحياة غيرالمثالى سيكونون أكثر تقليدية، ساعين دائما إلى موافقة الآخرين, مع فكرة ضئيلة عن ما يريدون أن تكون حياتهم مثله، فيتقبلون بدلا من ذلك القواعد والصورالنمطية للمجتمع. كما سيكونون غيورين من الآخرين الذين يبدو أنهم ماضون قدما ومن المرجح أن رد فعلهم سيكون بسلوكيات تنافسية وتدميرية.

- **نموذج الاتساق THE CONSISTENCY MODEL :-**

على المستوى الجوهرى، نموذج الاتساق يركز قليلا على القوى الكبيرة، سواء كانت مفردة أو مزدوجة، فى الصراع أوعدمه, بل يؤكد على التأثيرالتكوينى من ردود الفعل من العالم الخارجى على الفرد. فكلما نقترب من التفاعل مع العالم، نفعل ذلك مع بعض التوقع أوالمعيارية, هذه التوقعات قد تكون فطرية (على سبيل المثال الخوف من الظلام)أو تعليمية (على سبيل المثال أمى دائما ما تحتضننى). وعندما نتفاعل مع العالم، فإن تجربتنا تؤكد أو لاتؤكد هذه التوقعات أو هذه المعايير. وإذا كانت ردود الفعل متسقة مع ما كنا نتوقعه، فكل شىء على ما يرام, ولكن إذا كانت لا تتفق مع قواعد التقييم (المعايير) فهذا مايخلق عدم الراحة النفسية (القلق والغضب) والضغط لفعل شىء للتخفيف من حدة المشكلة.

الحياة تفهم كمحاولة موسعة للحفاظ على الاتساق، و نمط الحياة المتعلم للفرد يعبر عن هذا الجهد, وأفضل نمط للحياة هو الذى يقلل من التناقضات التجريبية، مهما كانت أنماط العادة تنطوى عليها.

كما يمكنك أن تستخلص أن نظريات الاتساق تقلل من المحتوى فى البيانات الجوهرية و المحيطية, كما أنها أيضا تقلل من المحتوى فى بياناتها الإنمائية، مع القليل من الشرح على ما يحتاج إليه الآباء للقيام به من حيث المحتوى الملموس, بالأحرى تفترض ما على كل من الوالدين القيام به للتقليل من التضاربات على الاأرجح هو الأفضل. ولكن هناك أيضا تحيز؛ فالتناقضات سوف تحدث على الأرجح فى واحدة أو جانب آخرمن المعيشة ، والسلوك الناتج سوف يؤثرعلى أنماط الحياة الناشئة. وهكذا فإن الالتزام الشامل لنشاط منظم المشاريع أوعلاقة شخصية اجتماعية جميعها سوف يمكن تفسيرها وفقا لأصحاب النظريات من حيث المجالات التى فيها تناقض أكبر أو أقل خلال النمو, و بسبب التقليل من الإمكانيات والمثل العليا وما شباهها , فنظريات الاتساق تقلل من التمييز بين أنماط الحياة المثالية وغير المثالية وأنماط النمو، إلا أن الهدف العام من المعيشة هو الحد من التضارب التجريبى.

فى حين يفترض أن الصراع مستمر فى نظريات الصراع ، وأنه لا مفر منه، فهو محدد فى المحتوى، ويمكن السيطرة عليه ولكن لا يمكن القضاء عليه، أما التضارب الذى يفترض فى نظريات الاتساق يمكن تجنبه ويختلف فى المحتوى,هذا هو السبب الرئيسى وراء نظريات الاتساق ليست هى مثلها فى نظريات الصراع. وعلى النقيض من نظريات الإنجاز فنظريات الاتساق لا تفترض أية قدرات محددة سلفا أو مثل عليا كمرشدة للعيش داعية بدلا من ذلك إلى الاتساق، بغض النظرعن التوقعات أو

المعايير التى يتعامل معها التفاعل. هذا هو السبب الرئيسى وراء أن نظريات الاتساق ليست هى نفسها كما هى فى نظريات الإنجاز.

- نسخة التنافر المعرفى The Cognitive Dissonance Version:-

نموذج الاتساق أيضا له نسختان, فى نسخة التنافر المعرفى تفترض أن الاتساقات والتناقضات بثبات تشارك فى عمليات التفكير؛لذلك قد يكون هناك تضارب بين توقع ما يمكن أن يحدث وإدراك ما حدث بالفعل.

فى محاولة لحل التناقضات،نجد الأشخاص بحاجة إلى تغييرتوقع ما يمكن أن يحدث أو إدراك ما حدث. تغيير التوقعات من الواضح أنها عملية تفكير داخلى(على سبيل المثال قد أكون مخطئ فى توقع هدية فى الاحتفال). وتغيير أدراك ما حدث قد تكون عملية التفكيرباستثنائية (مثلا ربما قد أسئت الفهم ، والاحتفال لم يكن حول إعطاء هدايا) أوقد ينطوى على تغيير فى التصرف الذى من شأنه أن يسمح بإدراكات مختلفة (مثلا إذا أعطيت الناس هدية، ربما أنهم سوف يعطونى واحدة فى المقابل، وحينئذ لن أكون قد اصبت بخيبة أمل), هكذا يمكنك أن تتخيل مجموعة واسعة من أنماط الحياة التى تنجم عن محاولة الحد من التناقضات.

- نسخة التفعيل The Activation Version:-

على النقيض من نسخة التنافر المعرفى تؤكد نسخة التفعيل الاتساق بين الدرجة المعتادة من التوتر الجسدى (وتسمى التفعيل) ودرجة التوتر التى توجد فى الواقع . كما يفترض أن التوتر الجسدى تساهم فيه جميع عمليات تفكير الشخص، والعواطف، والأنشطة، فنسخة التفعيل تظهر كأكثر تعقيدا وشمولا من نسخة التنافر المعرفى .

فعندما تكون مستويات التفعيل الحالى والمعتاد متلائمة يكون هناك هدوء. ولكن عندما يكون التناقض موجودا، يكون هناك ضغط إما لخفض أو لزيادة التفعيل الحالى لتتناسب بشكل أفضل مع ما هومعتاد . الأفكار، والعواطف والأنشطة (التصرفات) يمكن تغييرها فى محاولة للحد من هذا التناقض عن طريق تضخيم أو تقليل التفعيل. أنماط الحياة المتعلمة تتطور من النهج المعتاد لزيادة أو لخفض التحفيز من خلال أنماط معينة من التفكير، والعاطفة والتصرف.[1]

---

(1)

Salvatore R. Maddi , Personality Theories, A comparative analysis, 1996 by Brook/ Cole Publishing Company ,ITP An International Thomson Publishing Company, edition 6, p18,23

الدافـع

الدافع Motivation:

عندما نستخدام كلمة الدافع فهى تعنى، البدء، والقوة ، والاستمرار فى السلوك. فى هذه الدلالة يبغى المرء من الوصل بين الكلمات (المحفز) motive و (الحافز) الدافع motivation : فالدلالة القوة ، والتفعيل، وبذل القوة التى تنتج إما من الشروع فى السلوك أو التحول من نشاط مستمر إلى آخر.[١] والسلوك الدافع يجب أن يبدأ مع بعض الأوضاع أو الشروط التى تتطلب من الشخص أن يتبنى الهدف,مثل أن يسبقها نوعان من السوابق, إحداهما هى بعض الأحتياج بحيث أن الشخص قد قاسى شيئاً وهذا يحركه لنشاط ما يتفق مع تلك الحاجة, والآخرى هى بعض الحاجات الملحة على الشخص التى تنشأ من البيئة وتفاعله مع احتياج اواحتياجات كثيرة تحفزه للعمل.

قبل سنوات عالم الشخصية النفسى الكبير هنرى موري Henry Murray سنة (١٩٣٨) سمى هذان الضغطان على الشخص بالاحتياجات ***needs***(المطالب الشخصية personal demands) والضغط ***press***(المطالب الظرفية situational demands), هذه المصطلحات لا تزال تثير شعورا بالقوى التى يعانيها الشخص فى مثل هذه الحالات: الاحتياجات من الداخل والضغوط من الخارج.

الخطوة الثانية فى العملية التى وصفناها تشتمل على الالتزام بمسارعمل، أو النية ***intention***، التى من شأنها أن تعطى للشخص فرصة جيدة للوصول إلى الهدف. فبعد أن يتم تحديد الهدف والنية لتحقيق ذلك قد اختيرت ، يجب على الشخص ابتكار ووضع استراتيجية ***strategy***, هذه الاستراتيجية هى خطة للبدء فى السلوك المطلوب.[٢]

الأسس الدافعة لتقديم الذات :

الكتابات حول الموضوع تسرد عددا كبيرا من دوافع الإنسان التى يمكن تحديدها, بعض من هذه الدوافع ينتج سلوكا يجعل الفرد أقرب إلى الناس الآخرين ويعزز الإحساس بالانتماء للمجتمع بين الشخص وبيئته أوبيئتها الاجتماعية, والبعض الآخر يربطه بسلوك يميل لفصل الفرد عن المجتمع المحلى المباشر ويؤكدعلى المكاسب الفردية التى هى إما مستقلة عن أو على حساب أشخاص آخرين فى البيئة الاجتماعية.

هذه الفئات من الدافع تتوافق مع التمييز الأساسى بين النزعة الفردية والسلوك الاجتماعى والتى اعترف بها العديد من علماء النفس (على سبيل المثال، وجينزWiggins ، ١٩٩٢), وقد حدد باكان Bakan (١٩٦٦) هذه المفاهيم باسم "**الأنماط** *modalities* " الأساسية للوجود الإنسانى. واحدة دعاها **بالقوة** "*agency* "،وهى تتعلق "بوجود الكائن الحى كفرد" وتظهرفى سلوكيات كالدفاع عن النفس وإثبات الذات. والأخرى وصفت **بالمشاركة** "*communion* "،وهى تشير إلى "مشاركة الفرد فى جسم أكبربعض الشئ الفرد فيه جزء" (باكان، ١٩٦٦، ص ١٥), الفرق بين هاتين الطريقتين من الحياة تصنف العديد من الدوافع الاجتماعية المألوفة. فهؤلاء المرتبطون **بالمشاركة** يمروا على أسماء مثل الانتماء، والألفة ، الأرتباط أو الموافقة، والتعاطف، والإيثار, أما الدوافع المرتبطة **بالقوة** تشتمل على تأكيد الذات والاستقلال والإنجاز ، والسلطة، والسيطرة.

بعض الملاحظين(على سبيل المثال، هوجانHogan ، ١٩٨٣) اقترح هاتين الفئتين من الدوافع التى نشأت من حقيقة أن البشرمن بداية إقامتهم فى مجموعات نظمت تلك الجماعات وفقا لتسلسل هرمى للمكانة. وهكذا تطورت اثنان من احتياجات الإنسان الأساسية : الحاجة إلى وضع الهيمنة والحاجة الى الشمول والانتماء . هذه الاحتياجات بدورها تؤدى إلى الخوف من الفشل الاجتماعى, فالأشخاص يخشون الفشل الاجتماعى لأنه يهدد كل من اندماجهم داخل المجتمع ووضعهم الاجتماعى والهوية, فكونهم مرفوضين من قبل الآخرين يعزل الشخص من هويته أو هويتها الاجتماعية المرجوة, والشخص يصبح كائنا أقل تقديرا. فالناس تعمل بجد فى صنع انطباعات جيدة على الآخرين حتى إن كان هذا لن يحدث. [٣]

الطبيعة الاجتماعية للدافع THE SOCIAL NATURE OF MOTIVATION:

هناك افتراض رئيسى هو أن معظم دوافع الإنسان تقوم فى سياقات اجتماعية, نبدأ بعرضنا لهذا الموقف مع الحقيقة البديهية : الإنسان العاقل Homo sapiens ، فالإنسان هو حيوان اجتماعى. حيث إن معظم الناس يتفقون مع هذا التصريح؛ فالنساك نادرون نسبيا. البشرسواء كانوا محبين أو كارهين، مساعدين أو ضارين، مهيمنين أومذعنين يقضون معظم وقتهم مع بعضهم البعض. فالبشر تطوروا كجنس بشرى اجتماعى فى حزم صغيرة أو مجموعات من الناس يعيشون معاً من أجل الحماية

---

(١) RUSSELL G. GEEN ,Human Motivation, A Social Psychological Approach, University of Missouri, BROOKS/COLE PUBLISHING COMPANY ,PACIFIC GROVE, CALIFORNIA ,p14

(٢) مرجع سابق,ص,٢،٣

(٣) مرجع سابق ,ص ,٢٤٩ , ٢٥٠

المتبادلة والاصطياد الجماعى والجمع. اليوم الناس يعيشون فى محيط مادى مختلف عن ذلك للأسلاف البعيدة وطبيعة الروابط الاجتماعية التى تربطهم مع بعض قد تغيرت، ولكن الطبيعة البشرية لا تزال فى الأساس اجتماعية.

القول بأن البشر هم حيوانات اجتماعية لا يعنى أنهم أفراد دائما محبون للمجموعة ، مؤنسون، ومتعاونون يحترمون حقوق الآخرين. فأحيانا الأوساط الاجتماعية هى مناسبات للجريمة والكراهية والاستغلال وسوء المعاملة. ومع ذلك، سواء كان الشخص فى مجموعة، أو ضدها، أو مجردا معزولاعن ذلك، فسياق التصرف والدافع وراء ذلك لا يزال اجتماعيا. فالأفعال المحفزة من قبل البشردائما تقريبا تجرى داخل البيئة الاجتماعية, وعلاوة على ذلك مثل هذا النشاط يتطلب عادة بيئة اجتماعية، بغض النظر عما إذا كان الدافع يقرب الآخرين أو يضع المرء ضدهم.

الخلفية التاريخية لعلم النفس التحفيزى The Historical Background of Motivational Psychology :

- المفاهيم الكلاسيكية للدافع:

فكرة الدافع كما يفهم معظم الناس أنها كلمة تصف الشروع فى التصرف، واختيار الأهداف للسلوك، وبذل الجهد - وهى قديمة جدا. ويتجلى ذلك على سبيل المثال فى وجهات النظر التى أستمرعلى أساسها سلوك الإنسان خلال العصور الكلاسيكية القديمة. كانت واحدة من وجهات النظر تلك مذهب المتعة *Hedonism* ، المذهب القائل بأن السلوك البشرى يحركه البحث عن المتعة. فمذهب المتعة الرئيسى كان لابيقوريون *Epicureanism* الذى درس أهمية المتعة ,ولكنه أيضا عقد أهم سبب للنشاط هو تجنب الألم. و مع ذلك هناك مذهب كبت الغرائز*Stoicism* ، الذى درس فضل تقديم حياة المرء طوعا فى انسجام مع قوانين الطبيعة. أما فكرة تحقيق الذات *self-actualization* وتلبية إمكانية الفرد هوالمفهوم الذى يبدو أنه حديث تماما، يمكن العثور عليه فى كتابات أرسطو (واترمان Waterman ، ١٩٨٤). وهناك فلاسفة كلاسيكيون آخرون درسوا أهمية فضيلة المواطنة والتزام المواطنين لأداء مسؤوليات معينة للمجتمع. فى مختلف هذه الأفكار الكلاسيكية يمكننا أن نتبين الخطوط العريضة لبعض المواضيع الحديثة التى تكمن وراء نهجنا المعاصر إلى الدافع : **السعى للمتعة، الإرادة، الالتزام بالأهداف، والمسؤولية الاجتماعية.** بمعنى أن مثل هذه الأفكار ظلت معنا منذ فجر الحضارة الغربية، ويمكننا أن نقول أن الدافع كان دائما مدركا كمتغير فى السلوك البشرى.

- الطوعية Voluntarism :

كانت العقيدة المسيحية الرسمية للدافع هى المزج بين التعاليم اليهودية مع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ودُعيت بالأفلاطونية الجديدة *Neoplatonism*. فهذا الأخير،هو امتداد للتقاليد الكلاسيكية لأفلاطون،التى رأت أن العالم المادى هو فاسد ومنحط ، وأننا يجب أن نرتفع فوقه للحصول على تحقيق مستوى أعلى وأكثر مثالية. فرفض العالم يعنى بطبيعة الحال رفض الملذات الجسدية. وهذا المذهب بلا شك نادى إليه أوائل الأخلاقيين المسحيين، والذى أصبح فى النهاية مندمج فى اللاهوت المسيحى فى القرن الخامس للقديس أوجسطين St. Augustine، وهوالمتحول إلى الأفلاطونية الجديدة والفيلسوف الكبير الأول للكنيسة ، أوجسطين أعلن شرور اللذة الحسية، جاعلا الإرادة مركزية لجميع مظاهر السلوك البشرى, فالتعاليم الأساسية لكتابه الكبير " مدينة الله *The City of God* " هى أن الروح أبدية، ولإنقاذ روح المرء يجب أن يتجاوز مطالب ورغبات الجسد التى الروح فيها , خلال حياة الإنسان على الأرض، والتى تسكنها لفترة وجيزة. وأننا لدينا إرادة حرة لصنع خيارنا الخاص , سواء كان لإخضاع الجسد للروح واختيار طريقة الخلاص التى تقدمها الكنيسة، أو الاستسلام لشهوات الجسد، وبالتالى اختيار الطريق المؤدى إلى الهلاك الأبدى. هذا المذهب أصبح سائدا عن الدوافع البشرية طوال العصور الوسطى.

فقد تميزت وجهة نظر القرون الوسطى للإنسان بافتراضين كان أولهما أن البشرواعون وعلى علم بما يفعلون, وثانيهما أن العمليات الطبيعية للشخص المدرك بوعى، عمليات نحن نعطيها اليوم تسمية الإدراك، والتأثير، والعاطفة، وهم تحت سيطرة الإرادة. هذا هو إرث أوجسطين, حيث كان مطلوبا من الشخص ليس فقط أن يتصرف وفقا لعقائد الكنيسة ولكن أيضا أن يفكر بالأفكار الأرثوذكسية, وكان القيام بخلاف ذلك دعوة للإدانة بوصفه زنديق, حتى الحالات العاطفية اعتبرت أنها تحت السيطرة الواعية, فما نسميه اليوم بالاكتئاب على سبيل المثال كان يعتبر خطيئة من قبل كنيسة القرون الوسطى بدعوى أن المسيحيين يجب أن يكونوا سعداء وفرحين فى خلاصهم (جاكسونJackson ، ١٩٨٦). فيمكن للمرء أن يقول لذلك أن مفهوم الدافع يُعَّرف بأنه كالإرادة البسيطة التى كانت حجر الزاوية فى نهج القرون الوسطى للسلوك. وعلى الرغم من أن عصرالنهضة و حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى فى القرن ١٦ أجرت العديد من التغييرات على العقيدة المسيحية والممارسة ، فإن الدور الرئيسى للإرادة واصل ليكون مقبولا من جانب البروتستانت والكاثوليك على حد سواء.

أما نهج المتعة hedonic approach بالنسبة للدافع لم يتحول كبديل رئيسى للطوعية حتى القرن ١٧، وعندما عاد اكتسب لغة مفاهيمية جديدة : **لغة العلم والقانون الطبيعى والتجريبية**. فنحن جميعا على دراية أكثر أو أقل بالثورة العلمية التى جرت فى القرنين ١٧ و ١٨. فخلال هذا الوقت علماء كبارمثل كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو Galileo، ونيوتن Newton قاموا باكتشافات أدت إلى فهمنا للكون ,و صيغت القوانين الفيزيائية لشرح عملها. فى مثل هذا الجو كان لا بد أن شخصا ما سيحاول تفسير سلوك الكائنات الحية من حيث القانون الطبيعى, المحاولة بدأت فى فرنسا فى القرن ١٧ عندما اقترح الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت Rene Descartes أن الحركة الحية جوهريا تتأسس على رد الفعل المنعكس *reflex* ،وهو رد فعل

طبيعى وفطرى لمؤثر خارجى لا يتطلب أى وساطة واعية أو إرادة. ففى الواقع درس ديكارت ذلك فى جميع الحيوانات دون البشر، وهوأن السلوك يتكون من لا شيء سوى هذه الأنماط الحركية الانعكاسية. لم يكن على استعداد لشرح كل سلوك إنسانى بنفس الطريقة، ومع ذلك احتفظ بالاعتقاد فى النفس البشرية والإرادة الواعية.

- المادية Materialism :

فى حين كان ديكارت غير راغب فى تقليص السلوك البشرى إلى علم الانعكاساتreflexology ،إلا أن غيره ممن جاءوا بعده من وطنه الأم كانوا أقل تقيدا . وكان واحدا منهم بييرجاسندى Pierre Gassendi الذى كان يؤيد موقفا جذريا تماماً فى ذلك الوقت، وهو أن الوعى لا يلعب أى دور فى إثارة أو توجيه السلوك البشرى ولكنه مجرد منتوج ثانوى عرضى ، أو ظاهرة إضافية من العمليات الفيزيائية والمادية، فهى ردود الفعل المنعكس التى وصفها ديكارت. كل سلوك بشرى يتكون فقط من ردود أفعال عمياء ولا واعية لمؤثرات من البيئة.

وكانت الشخصية المهمة الآخرى لهذه الفترة من الفكر الفرنسى جوليان اوفورا دو لامترى Julian Offray de la Mettrie[1]، الذى كانت وجهة نظره يمكن فهمها بسهولة من عنوان كتابه الرئيسى :إنسان الآلة *Man the Machine* , فى تشبيه للإنسان بالآلة، لامترى استخدم ما يسمى بالاستعارة.

ففى هذا الوقت أصبح الأوروبيين على دراية بالأدوات الميكانيكية مثل الساعات وصناديق الموسيقى، لذلك كانت الاستعارة الميكانيكية بسهولة فى متناول اليد. وكانت الغاية من الاستعارة واضحة بأن البشر لايمكنهم الشروع فى شيءٍ من تلقاء أنفسهم تماما كما فى الآلة لا يمكنها أن تستمر فى الحركة حتى يتم تفعيلها من قبل بعض القوى الخارجية. هذا المذهب أصبح يعرف باسم المادية الميكانيكية *mechanistic materialism* التى مارست تأثيرا قويا على علم النفس فى القرن ١٩, وهى اليوم الأساس الجوهرى لمجال علم النفس الفيزيولوجى.

- التجريبيه البريطانية وكانط British Empiricism and Kant :

المفكرون الفرنسيون الذين رفضوا فلسفة ديكارت اعتقدوا - كما فعل علماء عظماء العصر- بأن الطريقة الوحيدة التى يمكن للبشر الحصول على المعرفة من خلالها هى التجربة. جاليليو على سبيل المثال عرف أن أقمار كوكب المشترى موجودة لأنه نظرإليها من خلال تلسكوبه, فكان لا يتخذها من معتقد، كما أنه لم يكتشف وجودها من خلال التفكير المنطقى.فهذا الاعتقاد بأن التجربة هى أساس المعرفة كان يسمى بالتجريبية *empiricism* , حيث كانت وجهة النظرالتى ازدهرت خلال القرنين ١٧و ١٨ ليس فقط فى فرنسا ولكن أيضا فى بريطانيا العظمى. وهذه الحركة دعت بالتجريبية البريطانية ، وعلى الرغم من رفض بعض الاستنتاجات المادية بصورة جذرية إلى حد بعيد بشأن نظيرتها الفرنسية،إلا أنها وضعت قسطا كبيراعلى التجربة. و كانت أول هذه الشخصيات العظيمة من هذه المدرسة هو جون لوك John Locke الذى قدم استعارة العقل غيرالمشكل بلاملامح *tabula rasa* ، وهى الفكرة بأن كل واحد منا يولد مثل الورقة البيضاء وأن كل ما نحن عليه هو نتيجة التجارب التى أُكتسبت من تفاعلنا مع البيئة، فتنقش علينا. وكان الشكل الأكثر تطرفاً من التجريبية لديفيد هيوم David Hume الذى رفض مفهوم الروح تماماً، بحجة أن ما نسميه الروح (والذى يمكن أن يصف اليوم بالنفس) ليس سوى مجموعة عابرة ومتغيرة باستمرار من تأثيرات الحس والأفكار البسيطة.

فالأساس الجوهرى لما نفعله من بعض الأشياء وتجنب القيام بالبعض الآخر,يبرهن بأنه يكمن فى تجربتنا من عواقب سلوكنا. وبهذه الطريقة عاد نهج المتعة hedonic approach إلى تيارالدوافع البشرية بعد منفى طويل. وما إن عاد مارس نفوذاً قويا على تطور علم النفس، واجداً تعبيرا حديثا فى قانون التأثير Law of Effect لثورنديك Thorndike (المبدأ بأن النتائج الممتعة تعزز السلوك فى حين المؤلم منها يخمده), وبالتالى فإن مبدأ المتعة هو الأساس لتلك النظريات السلوكية التى تفسر السلوك من حيث احتمالات الثواب والعقاب.

فمجيء المادية ومذهب المتعة لا يعنى زوال النهج الطوعى voluntarist approach التقليدى للدافع. فقد كانت التجريبية الراديكالية لهيوم والافتراضات عن الروح التى ميزتها ، كانت الأهداف الرئيسية للفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط . ففى حجته أن الروح ليست أكثر من اسم نعطيه لأحاسيس عابرة وغير دائمة، ونفى هيوم وجود أى وعى مركزى، وهذا هوالعقل الذى يتجاوز الخبرة الفورية. ولأسباب لا حاجة لذكرها هنا ، رفض كانط هذه الفكرة، واقترح بدلا منها بأن كل شخص يمتلك نفسا متسامية ورئيسية قادرة على الفهم وعلى التصرف وفقا للضرورات الأخلاقية، وهذا هو ما يجعلها بطواعية تقوم بخيارات سلوكية.

- القرن التاسع عشر The 19th Century:

على الرغم من أن بعض علماء القرن ١٩ اتبعوا النهج المادى للسلوك الإنسانى الذى دعا إليه صاحب المذهب الميكانيكى الفرنسى (مثال الفيلسوف البريطانى هربرت سبنسر)، فى حين واصل معظم الناس فى تلك الفترة الاعتقاد بأن السلوك إلى

---

[1] (١٧٠٩ - ١٧٥١) كان طبيبا فرنسيا وفيلسوفا ، وأحد أقدم الماديين الفرنسيين فى عصر التنوير.
https://en.wikipedia.org/wiki/Julien_Offray_de_La_Mettrie

حد كبير عقلانى و تحت سيطرة واعية. التحديان على الاعتقاد الشائع نشأ فى النصف الأخير من هذا القرن، ومع ذلك كان لكل منهما تأثيرات هامة على علم النفس الدافع. إحدى التحديين جاء من المفهوم النامى ببطء من اللاوعى unconscious ، فتلك الفكرة لها تاريخ طويل وقد أصبحت بارزة فى ظل تطورات دراسة استخدام التنويم المغناطيسى بواسطة أطباء فرنسيين مثل جون مارتا شاركو Jean-Martin Charcot وايبوليت بيرنايم Hippolyte Bernheim (ألنبردجر Ellenberger، ١٩٧٠),الأهتمام فى اللاوعى تُوّج فى عمل سيجموند فرويد، الذى قدمت نظريته عن التحليل النفسى نسخة جديدة من المادية. فيها عيَّن فرويد دوافع السلوك البشرى إلى محركات لاواعية وعميقة والاحتياجات . مثل التجريبيين الراديكاليين فى القرن ١٨، سلم بأن العقل الواعى لا دورله ، وذكر بدلا من ذلك أن "الأسباب" التى نستشعربها لأعمالنا ليست أسبابا على الإطلاق، بل مجرد عقلنة بعد وقوع الحدث.

وكان التطور الآخر الذى اعترض الافتراضات فى القرن ١٩ حول الدافع نظرية تشارلز داروين فى التطور*evolution* . حيث الفكرة الأساسية للتطورنشأت من أن الكائنات الحية تتطور من الأقل والأبسط إلى الأشكال الأعلى والأكثر تعقيدا – التى كانت موجودة منذ أيام أوائل الفلاسفة اليونانيين. وكانت مساهمة داروين فى المفهوم هو شرحه للتطور فى مصطلحات كانت تماما بيولوجية وعلى نحو محض بالتوافق مع القانون الطبيعى. وفى القيام بذلك استبعد أى فكرة عن الهدف فى التطور, فالتطورهو عملية تنافسية, الأنواع لا تتطور وفقا لبعض التصاميم الكبيرة، ولكن لأن الأعضاء الأقوى والأكثر قدرة على التكيف من الأنواع تبقى وتتكاثر، فى حين الأعضاء الأضعف تهلك.

ما جلبه كل من فرويد وداروين لفكرة الدافع الأنسانى كان مفهوم الغريزة *instinct*, وبواسطته تلاشت القدرة على التميز بين البشر والحيوانات الدنيا، داروين Darwin (١٨٥٩) فتح الباب لدراسة الغرائز فى البشر. حيث كان يفترض عموما حتى ذلك الحين أن الغرائز مقيدة بالأشكال الحيوانية دون الآدمية, وفى النظام التطورى، مع ذلك، أعطى معنى بسيطا لنتصور أن امتلاك الغرائز قد تتوقف مع القردة العليا. فرويد أيضا بنى الغريزة فى نظريته كنتيجة طبيعية لتسلسل فكرة محركات اللاوعى (فرويدFreud ، ١٩١٥، ١٩٢٠), ففى أوائل القرن ٢٠ فكرة غريزة الإنسان كانت مقبولة على نطاق واسع، والعديد من علماء النفس وضعوا قوائم طويلة من الحالات الغريزية المحددة, فعلى سبيل المثال وليام جيمس William James (١٨٩٠)، الذى كانت قائمته الأقصر من معظم القوائم شاملة غرائز مثل المشاكسة، التعاطف، الأكتسابية (الولع بالاقتناء)، الفضول، التواضع، والحب, هذه المصطلحات لم تستخدم كما نستخدمها نحن اليوم لمجرد وصف السلوك البشرى، بل كانت ذريعة كأسباب فعلية للسلوك.

وقد كان لنظريات الغريزة نوعان شاملان, **أحدها** وصف ببساطة مجموعة من السلوك المتفاوت التعقيد المشابه لردود الفعل المنعكسة. أما **وجهة النظر الأخرى** عن الغريزة كانت مختلفة كثيرا, التى دعا إليها بشكل رئيسى عالم النفس الإنجليزى ويليام ماكدوجال William McDougall (١٩٠٨)، هذه النظرية حددت الغريزة من حيث إنها مجموعة فطرية من العواطف التى يتم تفعيلها من خلال مجموعة واسعة من الظروف فى البيئة. العاطفة المركزية بمجرد تنشيطها تثير بعض الإشارات الداخلية التى تدفع نوعا معينا من الاستجابة.على سبيل المثال ناقش ماكدوجال بعض الظروف فى بيئتنا - فالعدد الفعلى ومداها يعتمد إلى حد كبير على الخبرات السابقة للشخص- كالتى تثير حالة عاطفية من الخوف. فنهج ماكدوجال للغريزة تحفيزى; العاطفة المركزية تُأسس ما سماه ماكدوجال حالة من السعى *striving* للوصول إلى بعض الأهداف, فى مثالنا كان الهدف الاطمئنان, وكل عاطفة لديها غاية لتحقيق بعض هذه الأهداف.

نظرية الغريزة لم تستطع البقاء لصعود علم النفس السلوكى, ففى عام١٩٢٠كان علماء السلوك لديهم صعوبة إنهاء علم نفس الغرائز البشرية, ومن خلال القيام بذلك، فتحوا الباب أمام صعود مفهوم جديد:**الدافع**.[١]

- **ومن هنا نجد** ١) إن بناء الدافع يشير إلى البدء والقوة،والإصرارعلى السلوك، فهويعالج مسألة لماذا الناس يفعلون الأشياء التى يقومون بها؟ حيث إن الدافع يترسخ ضمن عملية معقدة تتكون من اختيار الهدف، ووضع استراتيجية للوصول إلى الهدف، وتنفيذ المسارالمخطط للعمل, هذه العملية تتضمن أيضا عملية من المتغيرات المعرفية والوجدانية. فالأهداف التى اختيرت للعمل تتم بقدرأرضائها إما للاحتياجات الشخصية أو المطالب الظرفية.

٢) أغلب الدوافع الإنسانية تتم فى أوساط اجتماعية, بغض النظر سواء كان الشخص فعلا فى مجموعة يعمل ضد المجموعة، أو معزولا عن مجموعة، معظم الدوافع الإنسانية وراء ذلك هى فى طبيعتها اجتماعية.

٣) على نطاق واسع فإن مفهوم الدافع يمكن إرجاعه الى العصور الكلاسيكية القديمة، حيث تم العثور عليه فى مذاهب كمذهب المتعة *hedonism* وكبت الغرائز*Stoicism* , فمذهب المتعة احتفظ بالغرض من العمل وهو السعى وراء اللذة وتجنب الألم, ومع مرور العصر الكلاسيكى وهيمنة الكنيسة المسيحية أصبحت النظرية الأرثوذكسية للدافع الطوعية *voluntarism* . ووفقا لوجهة النظر هذه التى هيمنت على التفكير لأكثر من ألف سنة وضعت جميع التصرفات تحت سيطرة الإرادة، فالجسم تابع للروح، و السعى للمتعة حُمّل ليكون إثماً.

---

[١] مرجع سابق ص, ٥, ١٣

٤) نهج المتعة الكلاسيكية للدافع عاد ظهوره فى بداية العصر الحديث فى فلسفة القرن ١٧. ففى كل من التجريبيين البريطانيين والماديين فيما بعد ديكارت فى فرنسا عقدوا على أن العمل الإنسانى بدافع البحث عن المتعة. أما المثاليون الألمان فاتبعوا كانط وحافظوا على النهج الطوعى.

٥) نحو نهاية القرن ١٩ مفهوم الدوافع اللاوعية انبثق من كل من نظرية النشوء والارتقاء لداروين ونهج التحليل النفسى لفرويد. وتحت تأثير هذه الآراء اعتمد علم النفس مفهوم الغرائز البشرية الذى خدم غرض نظرية الدافع لسنوات عديدة, إلا أن نظرية الغريزة دحضت من علماء السلوك فى عام١٩٢٠، ولكن العديد من توابع الغرائز عاد ظهوره بمفهوم أحدث للمحرك فى ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

٦) نظرية المحرك تقوم على الاستعارة , بأن تصرف الإنسان يشبه الآلة التى تتفعل من خلال تأثيرات خارجية, وعلى هذا النحو هى واحدة من قائمة طويلة من الاستعارات التى استخدمت لشرح الوعى والسلوك البشرى منذ العصور الكلاسيكية, وتاريخ مفهوم الدافع هو تاريخ الاستعارات التى استخدمت لوصف ذلك.

٧) هناك نظرية توضح الدافع من حيث التوقع والقيمة التى تتعلق باستعارة أخرى : وهى التوازن البيولوجى *biological homeostasis*. هذه النظرية تفترض أن أطر الأهداف تضع محركات للتصرف، فالرأى يفترض أن الفرد هو مدفوع للحد من وجود تباين بين حالته الحاضرة وحالته المنشودة التى يمثلها الهدف. هذا النموذج أصبح الأساس لمزيد من التصورات الحديثة للدافع التى تعتمد على التناقضات بين الظروف الحالية والمثالية.[١]

<u>سيطرة النشاط فى الدافع action control in motivation :</u>

أن تكون قادرا على تحديد أهداف الشخص يمكن أن يساعدنا على معرفة ما سلوك الشخص الأكثر احتمالا والمتعلق بتلك الأهداف. وفى النهاية، فإن كل ما نحصل عليه من هذه المعلومات هو فهم معتقدات الشخص، ومشاعره، ودرجة التزامه بالهدف, لمعرفة كيف أن الشخص يتخطى فعلياً الالتزام وينفذ السلوك اللازم لتحقيق هذا الهدف الذى يتطلب فهم بعض المفاهيم والعمليات الأخرى.

وسوف يكون اهتمامنا طبيعة النشاط الذى نُشأ بواسطة الالتزام لتحقيق الهدف, وأول هذه المفاهيم هو **التناقض** *discrepancy* بين حالة الأشياء كما هى والحالة المنشودة التى يمثلها الهدف. المفهوم الآخر الذى سيتم تقديمه هو **الإرادة** *will* التى تصف القدرات البشرية للانخراط فى سلوك واعٍ وهادف، وأحيانا فى مواجهة الصعوبة الكبيرة. وكلا من المفهومين يندمجان فى النشاط المدفوع بدافع, وهو**الالتزام** *commitment* لتحقيق الهدف الذى يخلق وجود تباين بين حالة الشخص الحالى والحالة المرغوب فيها، هذا التناقض يتم إزالته من خلال النشاط الهادف والمتعمد.[٢]

رد فعل الناس تجاه هذه التناقضات إما عن طريق محاولة القضاء نهائيا على سبب الحالة الراهنة أو عن طريق التكيف معها، وبالتالى يخلق حالة مستقرة جديدة أقرب إلى الحالة التى سببتها الظروف.

الملحق المحدد لمبدأ التوازن *homeostasis* إلى الدافع الاجتماعى قد وضعه ستاجنر stagner (١٩٧٧)، الذى اقترح أن وجود تباين بين الحالة القائمة والحالة المستقرة المفضلة ينشط نظام الاستثارة الذى هو مشترك بين جميع الدوافع. فهى بيولوجية فى الأصل تنطوى على تفعيل الجهاز العصبى. بدء النشاط فى نظام الاستثارة هو تلقائى فسيولوجى وغير مُعلَّم,على أن ستاجنر Stagner (١٩٧٧) اقترح أنه من خلال الخبرة والتعلم نربط الاختلافات الأخرى ذات الطابع غير البيولوجى مع تلك البيولوجية الأصلية. "وهذا يعنى"أن Stagner استنتج أن " **النظام يُفَعّل فى الأصل من اختلاف العمليات الكميائية التى يمكن أن تكون بعد التعلم الذى يسببه الاختلافات الاجتماعية** ". بهذه الطريقة وجود تباين اجتماعى محض مثل الذى ينشأ من الهدف الاجتماعى يمكن أن يأتى لحث نشاط فى نظام الاستثارة. والنتيجة النهائية هى الجهد الذى يبذله الشخص فى النشاط من أجل نتائج ذات صلة اجتماعياً.[٣]

مع مرور الوقت بيد أن بدأت هذه النماذج البيولوجية تخسر شعبيتها؛ فمفهوم الاستثارة نفسه وجد أنه غير كافى لشرح الأنشطة المعقدة للنظم الفسيولوجية المتنوعة فى الجسم. وارتبط تراجع الاستعارة التوازنية البيولوجية أيضا مع تزايد الاهتمام بدور الإدراك فى السلوك محفزا بجزء كبير من النماذج النظرية لمعالجة المعلومات والذكاء الاصطناعى (جاردنر، ١٩٨٥).[٤]

هناك نموذج عمل بسيط يمكن أن يستخدم لتحليل الدوافع الاجتماعية بشكل عام والارادة، فهو يحتوى على ستة فئات عامة من العمل تبدأ بالتفكير والتأنى فى تحديد الهدف الأهم، وتنتهى مع بلوغ الهدف أو مع الاستجابة لعدم التحقيق ، وفى هذه الحالة

---

[١] مرجع سابق ص, ٢٠ , ٢١
[٢] مرجع سابق ,ص , ٤٨ , ٤٩
[٣] مرجع سابق ص ٥٠ , ٥١
[٤] مرجع سابق ص ٥٢

تدور العملية إلى الوراء للمرحلة الأولى. فالمراحل الأربعة التى تقع بين هذه النقاط النهائية هى : (١) النية، (٢) النشاط ، (٣) المقارنة، و (٤) الإسناد.[١]

فعدم إحراز تقدم مرضى نحو الهدف قد يؤدى إلى زيادة فى التأثير السلبى, لدرجة أن مثل هذه الحالة الوجدانية تحدث وتأثيرها الرئيسى هو على الارجح تسهيل العمليات التى تجريها كنتيجة للبحث المنسوب(تقييم للحالة). وبالتالى فهو إما رفض، او تغيير فى الاستراتيجية، أو زيادة الجهد كوسيلة يختارها الشخص للحد من التباين بين الهدف والحالة القائمة، هذا مسار النشاط المعين سيتم دفعه على امتداد التأثير السلبى القوى.[٢]

مكان الإرادة فى الدافع:

على افتراض أن الناس ممارسون السيطرة الإرادية على تصرفاتهم فى السعى للوصول إلى الأهداف فإن الأرادة مرة أخرى ضمنا فى الكثير مما قيل تحد من وجود تباين بين الحالة الراهنة والحالة المرغوبة التى عادةً يعتقد فيها كأمريتطلب العزم وبذل متعمد للجهد.

المشكلة ما تعنيه الإرادة فى علم النفس القديم, فى نظرية القيمة المتوقعة التقليدية تميل إلى الافتراض أنه بمجرد أن الشخص قد شكل هدفا ولديه بعض الحوافز للوصول إليه، فإنه سوف يتخذ الإجراءات اللازمة للقيام بهذه المهمة, فالإرادة تندرج عادة تحت مفاهيم أخرى مثل الالتزام.

مراحل النشاط:

عن طريق إلقاء التمييز بين الإرادة والعمليات التى تسبقها مثل القرار والالتزام سوف يقدم علماء النفس الإرادة كجزء من عملية أوسع نطاقا تبدأ فى مراحل مبكرة من تحديد الأهداف و تنتهى إما بالنجاح أو الفشل فى الوصول إلى الهدف, حيث يمكن العثور على عرض العملية كاملة فى النظرية التى اقترحها هكهوسن Heckhausen وجولوتسر Gollwitzer (Gollwitzer؛١٩٨٧ ,١٩٩٠)هذه النظرية توضح مخططا على أربع مراحل بدءا بمرحلة قبل القرار predecisional ويليها فى تسلسل مابعد القرارpostdecisional ثم قبل النشاط (preactional) ،النشاط actional، ومرحلة بعد النشاط postactional.[٣]

إذا كانت المهمة صعبة ويشعر الشخص شعورا من السيطرة على نتيجة النشاط ، فمن ثم الشخص قد يتبنى توجه النشاط *action orientation*, وهذه حالة ذهنية تتميز بالتركيز على البدائل المختلفة للنشاط التى لدى الشخص, والإعداد إلى ممارسة واحدة أو أكثر منها, فالشخص الذى اتجاهه نشاطى يتجنب الاهتمام أومعالجة المعلومات التى لا تتعلق بالعمل من أجل تحقيق الهدف وبدلا من ذلك يعالج المعلومات المتعلقة بشكل أساسى بالهدف.

ففى سياق السلوك اليومى يتناوب الناس بين توجهات النشاط و الحالة (كوهل kuhl ، ١٩٨٤). ومع ذلك، هناك فروق فردية فى التوازن النسبى بين الحالتين, فبعض الناس تميل إلى أن تكون موجهة نحو النشاط أكثر الوقت وغيرهم تكون فى توجه الحالة *state orientation* (توجه الحالة هى معادية للعمل وتعمل ضدها), وهكذا يتم تحديد توجهات النشاط و الحالة من خلال كل من المتغيرات الظرفية والشخصية.

كما لوحظ أن الناس الذين يتبنون توجه النشاط يستخدمون ثلاث استراتيجيات لتنفيذ نواياهم: الاهتمام الانتقائى selective attention، والمعالجة processing، والسيطرة العاطفة emotion control.[٤]

لماذا نوايانا فى بعض الأوقات تبدو مترددة وضعيفة قبل أن ننفذها بنجاح ؟ الإجابة بالطبع هى أن فى كثير من الأحيان لم يكن لدينا هدف واحد واضح فى الاعتبار، ولكن بدلا من ذلك يتم التفكيرفى عدد من الأهداف التى قد تكون إلى حد ما قريبة من بعضها البعض فى الأهمية, فى مثل هذه الحالات يكون صراع الهدف احتمال قوى ، والسعى لتحقيق هدف واحد قد يضعفه فى نهاية المطاف عند تفكير المرء بالبدائل.[٥]

١) **ومن هنا نجد** هناك نماذج حديثة من الدافع تستند إلى مفهوم الاختلاف , تصف العملية بأنها تبدأ مع (١) تشكيل النية للسعى للهدف المختار ووضع استراتيجية لتنفيذ تلك النية، (٢) اتخاذ إجراءات محددة تهدف إلى تحقيق الهدف، (٣) المقارنة بين نتيجة الإجراءات وحالة الهدف من أجل الكشف عن أى تناقض، و (٤) إسناد السبب لأى تعارض يتم الكشف عنه, واعتمادا على الإسناد، يزيد الشخص من كمية الجهد المبذول، يغيرالاستراتيجية أو النية، أو ينفى التناقض.

٢) مجرد وجود حافز للسعى من أجل تحقيق الهدف لا يضمن أن الشخص سوف يقوم فعلا بالجهد الذى هو مطلوب, فالسعى للهدف يتطلب أيضا عملا من أعمال الإرادة التى تأتى بعد الالتزام, فالإرادة تتجلى فى الجهد الواعى إذا تم استيفاء شرطين:

---

[١] مرجع سابق ص٥٥
[٢] مرجع سابق ص ٥٧
[٣] مرجع سابق ض , ٥٨ , ٥٩
[٤] مرجع سابق ص , ٦٢ , ٦٤
[٥] مرجع سابق ص ٦٧

(١) المهمة يجب أن تكون صعبة بما فيه الكفاية لأن السلوك بلا جهد لن يؤدى إلى تحقيق الهدف ، و (٢) يجب على الشخص أن يعتقد أنه لديه السيطرة الكافية على النتيجة المؤكدة من الوصول إلى الهدف مع الجهد المطلوب.

٣) السعى لتحقيق الهدف يتطلب أيضا أن يعتمد الشخص إجراء توجه النشاط ، الذى فيه الحالة الذهنية تتميز بتركيز الاهتمام على الهدف ووجود مستوى عال من السيطرة على العواطف,أما توجه الحالة من ناحية أخرى هو تحول الانتباه بعيدا عن الهدف، ونحو أفكار الشخص ومشاعره. فاعتماد توجه الحالة معادٍ لتوجه النشاط لتحقيق الهدف ويميل إلى إضعافه, ونجد توجهات النشاط والحالة أيضا ترجع جزئيا إلى الفروق الفردية الثابتة فى الميل إلى الاعتماد لواحدة أو أخرى من هذه التصرفات. [١]

(العاطفة Emotion):-

١) واحدة من أقدم القضايا فى دراسة العاطفة هى ما إذا كانت العاطفة هى من تأثير عمليات فى الدماغ أو من عمليات فى الجسم محيطية. نظرية جيمس-لانج James- Lange تعرف العاطفة كتصورمن التغيرات فى الحالات الجسدية التى يشارك فيها الجهاز العضلى الهيكلى والجهاز العصبى اللاإرادى. فى انتقاد نظرية جيمس -لانج، اقترح كانونCannon بأن المشاعر العاطفية تنشأ فى المهاد والتعبير العاطفى فى منطقة ما تحت المهاد (الدماغ).

٢) تستند النظريات العاطفية إلى استدلالات من ثلاثة أنواع من الظواهر الملحوظة **:** تقارير موضوع الخبرات ,السلوك الحركى المعبر فى العضلات الكبيرة وفى الوجه، والنشاط الفسيولوجى .إلى حد كبير، نظريات العاطفة تسعى إلى تفسير العلاقات بين تلك الظواهر الثلاثة.

٣) **نظرية الاستثارة - الإدراك cognition-arousal theory** أساس النظرية أنها تسعى إلى الربط معا المكون التفعيل اللاإرادى مع الإسناد الادراكى فيما تدل عليه هذه الحالة اللاإرادية ، وتوضح تلك المشاعر نتيجة لذلك الإسناد. [٢]

فعند شاشتر Schachter وسنجرSinger أن نظرية الاستثارة - الإدراك مشابهة لنظرية جيمس لانج حيث إنها تربط ما بين العاطفة كرد فعل من أجهزة تتقوى من الجهاز العصبى اللاإرادى, وخلافا للنظرية السابقة، فإن نهج شاشتر وسجنرتوضح رد الفعل بأنه استثارة معممة وغيرمتمايزة يتم وصفها بأنها عاطفة محددة من حيث الإدراك المتاح حول البيئة المباشرة, وقد تم اختبار هذه النظرية من قبل العديد من التجارب التى تنطوى على إسناد خاطئ لإثارة للمؤثرات غير عاطفية, على الرغم من أن بعض هذه الدراسات دعمت هذه النظرية، والبعض الآخرلم يدعمها.

٤) وتستند نظريات النفسية التطورية Psychoevolutionary إلى العاطفة على افتراض بأن العواطف الأساسية كانت جزءا من أنماط أكبر من السلوك التكيفى الذى انتقل عن طريق الانتقاء الطبيعى, هذه العواطف الأساسية هى النواة المركزية التى منها قد تم بناء غيرها من المشاعر. والتى ترتكز فى العمليات البيولوجية، بحيث تكون كل المشاعر الأساسية تتضمن نمطا معينا من النشاط الفسيولوجى ونمطا معينا من السلوك الحركى التعبيرى.

٥) فرضية ردود فعل الوجه على الأقل تعزو إلى بعض من تجربة العاطفة إلى العمليات التى تربط عضلات الوجه والأوعية الدموية إلى الدماغ. وقد أظهرت أدلة متسقة مع الفرضية أن تعبير الوجه يظهر ارتباطه مع تأثير المشاعر الايجابية ومقابلها السلبى, ما يولد من مشاعر معينة عن طريق الوجه لا يزال مفتوحا للتساؤل. نظريات ردود فعل الوجه هى نوعان: تلك التى تفترض أن العمليات المعرفية تتدخل وتلك التى تحدد الروابط الفسيولوجية، مثل فرضية Zajonc بأن درجة الحرارة فى إمدادات الدم إلى الدماغ تتوسط فى التجارب العاطفية.

٦) ليفينثال Leventhal يصف فى نظرية محرك الإدراك الحسى perceptual-motor theory العاطفة كتجربة يتم بناؤها من خبرات محرك حسى أساسية وذاكرة طويلة الأجل تنمو من تلك التجارب, العواطف يتم تميزها على أساس معالجة المحرك الحسى, والإدراك يلعب دورا مهما فى هذه النظرية فى تفصيل التجربة العاطفية من خلال الذاكرة التخطيطية والمفاهمية ، ولكنها ليست ضرورية للتجربة الأولية.

ففى البداية هذه الذكريات تقتصرعلى واقعات متفردة ومحددة، ولكن مع التجارب المتكررة لهذه الذكريات، فإنها تتجمع فى تجارب نموذجية أو تخطيطية. فعلى سبيل المثال النظر إلى والدتها فى البداية يثير فى ذاكرة الطفلة بعض المناسبات الماضية المحببة التى عاشتها ، ولكن بمرورالعديد من هذه المناسبات فإن ظهور الأم يطلق شعورا معمما من المودة, وأخيرا فالمعاجة التخطيطية تقود الطريق إلى مستوى لا يزال أعلى من المعالجة المفاهيمية.[٣]

٧) نظرية لازاروس Lazarus ورفاقه (نظرية التقييم الادراكى *cognitive appraisal theory*) هى أكثر إدراكية بثبات فى جميع وجهات النظر الحديث, ففى هذه النظرية العاطفة جزء من التعاملات المستمرة للبيئة التى تتم داخل الشخص

---

[١] مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤
[٢] مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤
[٣] مرجع سابق ص ٢١٢

, حيث الشخص بها يقيم باستمرار تقييما لكل من البيئة وعلاقته بها.فالفرد ليس متلقيا سلبيا للتحفيز ولكن وكيلا نشطا وبناء يتعامل مع التغيرات الظرفية ويؤثر على المشاعر التى تثير تلك التغييرات.[1]

فعندما يقود التقييم الأولى لاستنتاج أن الوضع متوتر، فمن ثم يتم إجراء تقييم ثانوى عن طريق الشخص الذى يقوم بتوافر الموارد للتعامل مع الضغط. وهذا يأخذ عادة أحد الشكليين فى التعامل القائم على حل المشاكل*problem-based coping* وفيه يركز الشخص طاقاته للقضاء على مصدر التوتر، وبهذا يتخذ النهج المحورى للمشكلة أما فى التأقلم داخل النفس *intrapsychic coping* يركز الشخص انتباهه ليس على المشكلة، ولكن على الاستجابة العاطفية الخاصة به نحو المشكلة, ويمكن أن تشتمل على تغيير الذات من أجل التكيف مع هذا الحدث المتوتر، أو قد تنطوى على انسحاب شخصى من الوضع عن طريق الكبح وإنكار المشكلة. وقد نلاحظ التشابه بين نوعى لازاروس لاستجابات التأقلم وبين بنيات كوهل لتوجهات النشاط والحالة.[2]

---

[1] مرجع سابق ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧

[2] RUSSELL G. GEEN ,Human Motivation, A Social Psychological Approach, University of Missouri, BROOKS/COLE PUBLISHING COMPANY ,PACIFIC GROVE, CALIFORNIA,p 214

التفكير الإبداعى

مفاهيم الإبداع:

اختلف علماء النفس فى تعريفهم للإبداع وهذا الاختلاف يأتى من خلال الأطر النظرية التى ينتمون إليها وينطلقون منها لتأصيل الفكر الإبداعى.

فعند تصفح للأفكار والنظريات الإبداعية نجد أن بعض من علماء النفس ينظرون إلى الإبداع عملية عقلية وبعض منهم ينظر للإبداع على أنه إنتاج ومنهم من عرف الإبداع بمجموعة من السمات الشخصية.

وأختلف علماء النفس فى دراستهم للإبداع، بعض من هؤلاء العلماء اهتم بالإبداع لدى الأطفال والأخر أهتم بالإبداع لدى الراشدين.

أ- تعريف الإبداع باعتباره قدرة عقلية:-

أول من ألقى الضوء على الإبداع هو سبرمان (١٩٣١) من خلال كتاب نشره بعنوان العقل المبدع (creative mind) والإبداع عبارة عن القدرة العقلية التى تخلق سياق جديد من العلاقات وذلك من خلال تحويل وتعديل الموقف بحيث يؤدى أى ظهور علاقات جديدة.

ويرى العديد من العلماء النفس مثل "بارون" ،"فروم" ، " شاكيتل "، " ووالسن " أن الإبداع عبارة عن قدرة الفرد على تقديم أشياء جديدة من خلال سياقات موجودة. وتتضمن هذه القدرة على إنتاج الاستجابات وتفردها.

وفى ضوء نظرية جليفورد للتنظيم العقلى ينظر إلى الإبداع على أنه نوع من التفكير التباعدى وقد أمكن رصد القدرات العقلية التى تكون الإبداع وهى موضحه فى الجدول (١)، السيد،١٩٧١).

جدول (١) قدرات التفكير الإبداعى

القدرة	
١- **الحساسية للمشكلات**	يظهر عامل الحساسية للمشكلات من خلال وعى المبدع بالحاجة إلى التغيير أو إلى حيل جديدة أو فى شكل وعى بعيوب فى الأشياء. وعموماً يوجد عامل إدراكى عام للحساسية للمشكلات الذى يظهر من خلال رؤية العيوب والنقائص فى خبرات الحياة اليومية.
٢- **الطلاقة**	تعبر تلك القدرة عن إمكانية الفرد فى أن ينتج عدداً كبيراً من الأفكار خلال وحدة زمنية معينة. ويمكن التعبير عن هذه القدرة من خلال العوامل الفرعية الآتية : أ- **طلاقة الكلمات :** وهى عبارة عن سرعة إنتاج كلمات وفق لمستلزمات بنائية محددة . ب- **طلاقة التداعى :** وهى عبارة عن سرعة إنتاج كلمات مع توافر خصائص محددة فى المعنى. ج- **طلاقة الأفكار:** وهى عبارة عن سرعة إيجاد عدد كبير من الأفكار فى أحد المواقف، بغض النظر عن نوع التحديدات أو القيود.
٣- **المرونة**	وتعبر هذه القدرة عن درجة السهولة التى يغير بها الفرد حالته النفسية أو الوجهة العقلية بصورة معينة. وتنقسم المرونة إلى نمطين هما : أ- **المرونة التكيفية :** ويتصل هذا العامل بتغير الفرد لوجهته الذهنية لمواجهته مستلزمات جديدة تفرضها المشكلات المتغيرة. ب- **المرونة التلقائية :** ويتصل هذا العامل بحرية تغيير الوجهة الذهنية فيما يتصل بمشكلة محددة تحديداً ضيقاً.
٤- **الأصالة**	تعتبر القدرة على إنتاج أفكار جديدة وطريقة عنصراً أساسياً فى التفكير الإبداعى. والفكرة الأصلية التى تكون جديدة ولها أقل تكرار فى استجابات الأفراد وهى تكون نادرة.
٥- **التحليل**	تعبر هذه القدرة على تفتيت الأشياء إلى أجزاء بسيطة أو تفتيت مركبات قائمة بالفعل وتحويلها إلى وحدات أبسط منها لكى يعاد تنظيمها.

٦- **التآلف**	تعبر هذه القدرة على تنظيم الأجزاء فى كل متكامل ويسعى المبدع أن يحتفظ فى ذهنه بعدة متغيرات وأن يتصرف فيها وذلك أثناء محاولته أن يجد الحل لمشكلة ما.
٧- **إعادة التحليل**	ويعنى بإعادة التحليل إعادة التنظيم بحيث تنتظم مجموعة من أجزاء الموقف وتتكامل من خلال السلوك الإستبصارى.
٨- **النفاذ**	ويعنى بالنفاذ تحديد نتائج ما يترتب على بعض ظروف الحياة مثل: ماذا يحدث لو لم يعد من الضرورى أن يأكل الإنسان؟ والنفاذ يعنى النتائج بعيدة فى المكان والزمان، أو فى سلسة العلاقات السببية والنفاذ يعنى بقدرة الفرد على رؤية ما يتجاوزما هو واضح ومباشر.
٩- **التقويم**	لكي تكون القدرات الإبداعية فعالة ينبغى أن تصاحبها ممارسة لنوع من النقد الذاتى أو الحكم أو التقويم . وعرف جليفورد التقويم بأنه وعى بإتقان شئ معين أو موقف أو نتيجة أو إبداع، مع معيار أو محك الملائمة أو الجودة.

ب- تعريف الإبداع باعتباره عملية عقلية:-

يرى تورانس أن الإبداع يمكن النظر إليه على أنه عملية عقلية، وقد عرفها بأنه عملية الإحساس بالمشكلات والصعوبات والعناصر المفقودة فى المعلومات مع وضع التخمينات أو صياغة الفروض فيما يتعلق بهذه النقائض ثم اختبار هذه التخمينات وربما تعديلها وإعادة اختبارها وفى النهاية توصل النتائج للآخرين.

ويرى"موراى" أن الإبداع هو العملية التى ينتج عنها تركيبة جديدة وذات قيمة. والإبداع فى هذا التصور يعتبر عملية ينتج عنها عمل جديد يتقبله المجتمع وهو بهذا يعتبر الإبداع نسبى من مجتمع لأخر. والإبداع هو عملية تحقيق الذات وان الدافع إليها هو حفز الفرد لأن يحقق ذاته. ويمكن اعتباره الميل إلى التعبير عن قدرات الفرد القصوى. والإبداع يعنى انبثاق أو توليد علاقة جديدة بين الفرد والبيئة التى يكون فيها أشخاص ومواقف من ناحية أخرى.

ويرى بعض من علماء النفس أن الإبداع عملية تكوين أو صياغة العناصر المترابطة والمتباعدة فى تركيبات أو صيغ جديدة. وكلما كانت العناصر متباعدة كانت عملية الصياغة لهذه العناصر أكثر إبداعاً.

ج- تعريف الإبداع بوصفه إنتاجاً :-

يرى"ويسلون" أن الإبداع عملية إنتاج شئ جديد مثل فكرة جديدة أو موضوع معين. والإبداع يؤدى إلى ظهور منتجات جديدة وفريدة من نوعها. ويرى "ماكينو" أن التفكير الإبداعى يتضمن استجابة أو فكرة جديدة أوعلى الأقل فكرة نادرة. والإبداع عملية تمتد خلال فترة من الوقت التى يتميز بالأصالة والتحقق.

والإبداع يركز على النوع والجدة.ويظهر الإبداع من خلال الأعمال الفنية مثل أعمال الأديب نجيب محفوظ أو أعمال "بيكاسو" أن تحديد العمل الإبداعى يحتاج إلى الكثير من المعايير للكشف عن النتائج وهل هو ينتمى للعمل الإبداعى أم لا؟

ويؤكد "جانييه" أن الإبداع العلمى أو الفنى ما هو الا نشاط يقوم به الفرد لحل مشكلة معينة من خلال استخدام ومضة الاستبصار وبالرغم من اشتغال تفكيره بالمشكلة لبعض الوقت. وتعتمد هذه الأعمال الإبداعية باعتباره سلوكاً لحل مشكلة معينة عن مقدار كبير من المعرفة المكتسبة من قبل، سواء كانت هذه المعرفة من النوع العام المعروف فى مجال العلم أومن النوع الخاص المعروف لدى الفنان المبدع.

ويرى"جانييه" أن العمل الإبداعى يتطلب أن يكون لدى الفرد معرفة سابقة بالمبادئ التى يشتمل عليها الموقف. ومع ذلك يرى أن الاكتشاف العظيم على عكس أنواع الاكتشافات العادية يشتمل على نوع من التعميم يذهب بعيداً خلف ما يمكن توقعه فى موقف التعلم العادى.

هذا النوع من التعميم عبارة عن وثبة استقرائية تتجمع فيها الأفكار التى تأتى من أنظمة معرفية منفصلة وبشكل واسع كما أن هذا التعميم يمثل استخدام جزئياً للمماثلة يفوق ما تعنيه عادة بالتعميم داخل فئة من مواقف المشكلة ويقرر"مالتزمان" أن أى اختراع يعتبر إنتاجاً إبداعياً إذا كان له أثر هام على المجتمع وإذا ترتب على التفكير الأصيل عند فرد معين.

د- تعريف الإبداع بوصفه مجموعة من السمات الشخصية:-

تظل الشخصية أحد المحاور التى تقود إلى فهم الإبداع فقد تتسم الشخصية بالانغلاق أو الانطواء فترفض التغيير والتجديد بحجة المحافظة على الموروث الثقافى، بل تكافح فى غلق كل النوافذ أمام رياح التغيير. ويستطيع هذا النمط من الناس أن يسوق الجميع وقد يستخدم البرهان المنطقى رفضاً كل جديد، لأنه يهدد مصالحه. وعلى النقيض قد تتسم الشخصية المبدعة بالمرونة والتلقائية والانفتاح على الآخرين. وهذا النمط المبدع الناقد بوعى، والمفكر بواقعية أكثر ويمكن رصد أهم التعريفات للشخصية وهى :

تعريف البورت (ALLPRTK, ١٩٣٧):-

ويعرفها بأنها " التنظيم الدينامى داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسية والجسمية التى تحدد خصائص سلوكه وفكره."

تعريف إيزنك (Eysenck, ١٩٦٠):-

يرى إيزنك أن الشخصية هى " ذلك التنظيم الثابت والدائم إلى حد ما لطابع الفرد ومزاجه وعقله وبنيته الجسمية، والذى يحدد توافقه الفريد لبيئته ".

تعريف كاتل (Cattell, ١٩٦٥) :-

يعرف"كاتل" الشخصية بأنها هى "ما يمكننا من التنبؤ بما سيفعله الشخص عندما يوضع فى موقف معين."

تعريف جليفورد(Guiford, ١٩٦٥):-

يعرف"جليفورد" الشخصية بأنها ذلك النموذج الفريد الذى تتكون من سماته وبالرجوع إلى تعريفات الشخصية يمكن أن نميز بين تنظميين وجوهريين فى الشخصية: (أحمد ذكى صالح،١٩٦٦).

الأول : هو التنظيم الإدراكى الذى يتعلق بالوظائف العقلية كالذكاء والقدرات العقلية والعمليات المعرفية العليا كالتصور والتخيل والاكتساب.

الثانى: هو التنظيم المزاجى ويشمل أساليب النشاط الانفعالى والتى تتعلق بالوجدان والعاطفة قدم بوس وبولمن(١٩٧٥) تصوراً عن مكونات الشخصية من المنظور المزاجى والتى تتحدد من خلال أربعة عوامل هى :-

١- العوامل الانفعالية Emotionality Factors:-

وهى تعبر عن شدة الاستثارة والتقلب المزاجى من حال إلى آخر. وتعبر أيضاً عن الخوف من التقلبات الخفيفة، ولهذا فإن الفرد من هذا النوع يقاوم التغيير والتجديد، لأن ذلك يدفعه إلى الخوف من كل ما هو جديد.

٢- عوامل النشاط Activity Factors:-

تشير أى مستوى النشاط الكلى. فالفرد الذى يمتلك هذه الخاصية يميل إلى العمل الدءوب والانشغال والحيوية، ويكون لديه القدرة على التغيير والتجديد بسبب قدراته التى تتيح له القيام بعملية المواءمة مع المستجدات الطارئة فى عمله ونطاق أفكاره.

٣- العوامل الاجتماعية Socialablility Factors:-

وتتكون أساساً من الميل إلى الصحبة الاجتماعية، ويمتلك الفرد قدراً من الجاذبية الاجتماعية والذكاء الاجتماعى، ولهذا فإن الفرد يمتلك قدراً من المرونة الاجتماعية.

٤- العوامل الاندفاعية Impulsivity Factors:-

وتتضمن الميل إلى الاستجابة بسرعة أكثر من الميل إلى كف الاستجابة. وهذا النوع من الأفراد لديهم الرغبة فى تقبل الآراء والأفكار الجديدة، بل يميلون إلى تطويرها وتطويعها من واقعهم. وبالتالى فإن هذه الفئة من الأفراد يمتلكون الرؤية الحقيقة فى عملية التغيير والتجديد.

خصائص الشخص المبدع:-

اهتم الباحثون فى مجال الإبداع بالخصائص النفسية للمبدعين وقد توصل علماء النفس أى مجموعة من الخصائص التى قدمها كل من "أبو حطبا " (١٩٨٣):

١- الخصائص العقلية :-

تعد عوامل التفكير التباعدى (divergent Thinking) أحد الخصائص العقلية للفرد المبدع، حيث أبانت الدراسات التى تناولت الإبداع أن الأفراد يتصفون بالقدرة على التمييز بين القيم والمرونة والتحصيل الدراسى والحدس. والشخص المبدع يتميز بدرجة عالية من الذكاء والإنتاج الإدراكى ودرجة عالية من اليقظة والتهيؤ العقلى لاستقبال المثيرات من العالم الخارجى والداخلى، واستقلال التفكير، ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وسرعة الفهم والأصالة، كما يتميز المبدع إلى الحدس بدرجة أكبر من الحكم. والمبدع يكون خيالياً، وتفكيره واضح ومتعدد الاهتمامات. كما أن المبدع قادر على إدراك الثغرات والأخطاء واستغلالها بل قد يستغل الأمور التافهة من وجهه نظر الأشخاص العاديين فى ابتكارات عظيمة.

٢- الخصائص الدافعية والمزاجية :-

تعتبر العوامل غير المعرفية هامة للإبداع. ومن أهم الخصائص التى يتميز بها المبدع انه يتسم بحب الاستطلاع والمثابرة والحيوية والحاجة إلى الاستقلال والرغبة فى القيادة وفرض الإدارة. والثقة فى قدراته وقوة الإرادة والمثابرة والصبر على المعوقات وثبات الجهد والرغبة فى التفوق وبذل الجهد والميل إلى الاستقلال ويستطيع التوفيق بين التناقضات الموجودة بداخله وهو قادر على جعل الغريب مألوفا والبعيد قريباً كما انه يمتلك القدرة على التخيل الإبداعى ويتسم بالثقة فى النفس بدرجة كبيرة والمرونة وتقبل الذات ويتملك دافعاً قوياً نحو الإنجاز خاصة فى المواقف التى تتطلب استقلال فى الفكر والعمل واستمتاع بالتفكير التأملى ومستوى عال من تحمل الغموض والميل إلى التفرد والاكتفاء الذاتى والانطواء والاندفاع فى التفكير.

الشخصية المبدعة :-

الشخصية المبدعة بالتحديد تهتم باستشراف المستقبل، أنها رؤية فى صورة ذهنية مثالية فريدة للمستقبل. إن استشراف المستقبل عبارة عن أن تتخيل ما يمكن أن يحدث من خلال استعمال سيناريو عقلى يمكن أن ينطلق من خلال (البروفة) العقلية (أحياناً يطلق عليه السيناريو التخيلى) التى يعبر عنها الخيال أو المشاعر الوجدانية التى تساعد على خلق توقعات عن المستقبل إن الشخصية المبدعة حالة من التناقض بين المشاعر والانفعالات ولهذا تكون السمات المزاجية فى عملية الإبداع أكثر أهمية من دور الذكاء فى هذه العملية. فالشخصية المبدعة تحمل فى داخلها نماذج من التناقض والتعارض بقدر ما تحمل فى داخلها من الاتساق والتناغم، حقاً أن شخصية المبدعين أثارت حيرة الباحثين فى تفسير الصورة المعقدة التى تبدوا أحياناً خطوطها متقاطعة ألوانها غير متجانسة (السيد،١٩٧١).

إذ يبدو المبدعون من الناحية النفسية أكثر اضطراباً من الناس بوجه عام، كما أنهم فى نفس الوقت يتصفون بأنهم أكثر صحة من الآخرين، ولديهم القدرة على تحمل الغموض المصحوب بقدر من التوتر، ويتميزون بالانطواء الانفعالى الذى يسمح لهم بإعادة البناء والإبداع، ويتميزون بالحساسية الانفعالية وفى الوقت نفسه يتسمون بخصائص الاتزان الوجدانى وقوة الأنا. هذا التناقض فى الشخصية المبدعة جعل عالم النفس" كاتل" يطلق على هذه الشخصية أنها نوع من الألغاز السيكولوجية.

وفى اعتقادى أن هذا التناقص هو الذى مكن لهذه الشخصية الثراء الفكرى النوعى والكمى وسعة الحيلة. أن الشخصية المبدعة تتصف بالثراء والتعقل والعمق اللا متناهى. أنها جزء من إبداعات الطبيعة وخيالات الفكر والفن أنها أسطورة الإنسان الذى أستطاع أن ينتقل بفكرة من عوالم مجهولة الهوية إلى وقائع معلومة المصدر والغاية، فكان من غاياته أن يبدع فأستطاع لإبداع والتخيل والتجديد.

أنها صورة الإنسانية عندما تسمو فوق نزواتها ليشكل الواقع أو يعاد تشكيله وفق مفاهيم الجمال والحق والخير. حقاً أنها أسطورة الإبداع من خلال الشخصية المبدعة.

وتتميز الشخصية المبدعة بالسيطرة على الطبيعة والميل إلى التحرر، كما أنها أكثر ذكاءاً وأكثر نضجاً من الناحية الانفعالية، وأكثر ميلا إلى المخاطرة، والحساسية الانفعالية والاكتفاء الذاتى، وعدم التوحد مع معايير الجماعة، والحضور الاجتماعى، وقبول الذات، وتفضل هذه الشخصية التعامل مع الموقف أو الموضوعات المعقدة، ولديها القدرة على استيعاب الموضوعات غير المنتظمة، وهى تقاوم الضغوط ، وتمتلك القدرة على السيطرة الاجتماعية من خلال تأكيد الذات المتمثل فى التحكم فى المواقف الاجتماعية، والثقة بالنفس عند التعامل مع الأخرين، وثبات القيم. ويتميز الشخص المبدع بأن لديه ميول عالية نحو حرية التعبير وقمع الضغوط الخارجية، وعنده نزعة إلى الاندفاعية فى التعبير عن دوافعه. أنه يمتلك الكثير من الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الحرية والتنوع والمخاطرة وتحمل الغموض، ولهذا فهو يتصف بالجدية والميل إلى الإنتاج.

ويمكن رصد أهم صفات الشخصية التقليدية والشخصية المبدعة فى الجدول (٢)الآتى : (سميث،١٩٨٩).

جدول (٢) خصائص الشخصية التقليدية والمبدعة

الموضوع	الشخصية التقليدية	الشخصية الإبداعية
حل المشكلات	تميل الشخصية إلى قبول المشكلة كما هى مع تقديم حلول تقليدية للمشكلة	تميل الشخصية المبدعة إلى إعادة تعريف المشكلة بطريقة إبداعية محطمة كل الحدود المتعارف عليها ومولدة حلولا تتسم بالجدة والتعددية
الحلول	تأتى الشخصية بعدد قليل من الحلول التى يراها ملائمة، وهى حلول تقليدية لا تصطدم مع واقع المجتمع، فهى حلول تساير المجتمع ولا تتعارض معه	يأتى بأفكار جديدة قد تصطدم مع المجتمع، وهنا يحدث الصراع بين مايراه هو وبين مايراه المجتمع ولكنه يمتلك القدرة على تحمل الغموض والضغوط وينجح فى تقديم الحلول التى تتسم بالثراء والتعددية.
النظام	يفضل التعامل مع الأوضاع فى أشكال أنساق منسقه فهو حاذق فى عملية التنظيم والترتيب والتبويب.	يفضل أوضاعاً غير منتظمة، ويحب المغامرة من أجل بناء نظام جديد وخلق هياكل غير تقليدية.
التنفيذ	يفضل استمرار العمل على حالته دون إدخال تعديلات، فهو يؤمن بأن التغيير يسبب مشكلات ويؤدى إلى خلق عداوات، وبالتالى فهو يميل إلى تكريس الوضع الراهن.	تجده ناجحاً فى وقت الأزمات وخصوصاً عند التجديد إنه يمتلك القدرة على إحداث التجديد، فهو يجد صعوبة فى التكيف مع الأوضاع الثابتة، حيث يمتلك روحاً تتصف بالديناميكية والفعالية.
رؤية الآخرين	يراه المبدعون أنه شخص موثوق فيه، ومنضبط ، ويمكن التنبؤ بتصرفاته، يحب الانضباط والنظام،غير متساهل فى إنجاز الأعمال، غير قادر على تحمل الطموح.	يراه الشخص العادى أنه شخص مغامر ومندفع ويخلق حالة من التنافر والفوضى، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته، وغير منضبط.[١]

[١] أ/ د فاروق السيد عثمان, سيكولوجية الإبداع , مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع , الطبعة الأولى ٢٠١٠ ,ص ١١, ٢٢

المناخ الإبداعى

١- حدود المصطلح:-

يستعمل مصطلح المناخ الإبداعى فى الأدبيات المتخصصة بتسميات عديدة مثل: المناخ الاجتماعى الإبداعى , الوضع الإبداعى, الوسط أو العوامل الاجتماعية- الاقتصادية والثقافية للإبداع (متضمنا العوامل التربوية). وهذه المصطلحات ليست متطابقة تطابقا تاما , فهى تختلف فى تأثيرها من المجالات البسيطة حتى المجالات الاجتماعية الواسعة , ومن التأثيرات العفوية المباشرة إلى التأثيرات التربوية الموجهة.. الخ.

أما بالنسبة لنا فالمناخ الإبداعى فى معناه الواسع يعنى الوسط المباشر والتأثيرات الاجتماعية النفسية , والاقتصادية , والثقافية, والتربوية. وهناك بعض الباحثين يستخدمون مصطلح "الوضع الإبداعى " مثل ماكينون , ويفهم حسب رأيه من هذا المفهوم كل ما يحيط بالفرد من أمور اجتماعية , وتأثير العمل والثقافة حيث يمكن لها أن تسهل أو تحبط التفكير والأفعال الإبداعية. ويفهم ضمنا من مصطلح "ماكينون " أن ما نسميه إبداعا ليس خاصة محددة للشخصية, بل هو شيء متغير , يصعد ويهبط بتأثير الظروف وأوضاع الحياة التى تساعده على النمو والازدهار أو الذبول والموت.

وتستعمل عادة فى الأدبيات التربوية المتخصصة جملة الظروف والمؤثرات الاجتماعية المباشرة (كالأسرة والمدرسة , وجماعة العمل.. الخ), ولكن علم النفس لا يمكنه أن يجعلها مجردة. فإن أى إبداع أو اكتشاف لا يظهر من أدمغة معزولة عن سياق التمثلات المبدعة لمعارف المعاصرين والأقدمين. وفى تاريخ العلم توجد حالات من الاكتشافات المتزامنة لباحثين عملوا بشكل مستقل , وهذا ما يشكل برهانا على وجود العامل الاجتماعى- التاريخى , أو ما يسميه جوته "روح العصر zeitgeist". وفى معالجتنا لهذا الفصل سننطلق من وجهتين : الأولى **مؤثرات المناخ الإبداعى فى تكوين القدرات المبدعة لدى الأطفال والشباب** , والثانية **مؤثرات المناخ فى الأداء المبدع لدى الأشخاص الذين يعملون ضمن مجال ما مهنى.**

٢- تأثير المناخ فى تكوين وترسيخ الإبداع:-

يمكن أن تظهر فى سياق نمو الطفل والشاب جملة من عوامل المحيط التى تنمى وتحرض أو تحبط وتعيق تطور الخصائص الإبداعية للشخصية.

لقد أظهر كثير من الدراسات التى وقفت على تأثير الأسرة أن الأسلوب التربوى المعتدل للآباء اتجاه أبنائهم بما يحتويه من التشجيع على الاستقلالية العقلية , وخلق الظروف المناسبة لتطور الاهتمامات والاستعدادات فى مجالات النشاط المختلفة يمكن أن تسهم فى تطورالشخصية المبدعة.

و يمكن أن نعدد جملة من الظروف التى تدفع أو تنمى تطور السلوك الإبداعى للشخصية فى إطار كل من الأسرة أو المدرسة مثل: عدم الإكراه , وأبعاد العوامل التى تقود إلى الصراع , وتشجيع الاتصال , والمخاطرة , واختيارالصعب فى الحدود المقبولة.

وهناك فى المدرسة حالات ومواقف خاصة تقود إلى تطوير روح البحث والتفكير الإنتاجى المنطلق , والمواقف المبدعة... وهذه المواقف يمكن أن تكون تشجيع التلاميذ على طرح الأسئلة, وتحريضهم على النشاط الفعال فى إيجاد الأفكار الحسنة , وحثهم على المناقشة , والنقد البناء.

وتوجد فى التعليم الجامعى والعالى أيضا مجموعة من العوامل التى تيسر أو تعيق الإبداع. فضمن بحث تطبيقه على مجموعة من العلماء المعروفين تبين من خلال السؤال المطروح عليهم فى الاستبانة حول العوامل الميسرة والمعيقة للقدرات الإبداعية أثناء الدراسة أن الإجابة كانت متفقة على أن العوامل الميسرة هى بالدرجة الأولى تشجيع الطلاب على الاستقلالية, وإن الأستاذ كان يعطى شكلا أو مشكلة ما , موحيا بأنه ينتظر نتائج جديدة من الطلاب , إضافة إلى ذلك حماسه , وقبوله للطالب على أنه مساو له. ومن العوامل المعيقة المرتبطة بخصائص الأستاذ فقد ذكر أفراد العينة عدم تشجيعه لأفكار الطالب ومبالغته فى النقد , ونقص ثقافته , وعدم تحمسه , وفوضويته وصلابته , واهتماماته الضيقة التى تتوقف على الاختصاص الدقيق فحسب.

ومن العوامل المساعدة على تفتح القدرات الإبداعية , أيضا , جملة النشاطات المدرسية والجامعية مثل حلقات البحث التى يسود فيها جو الانعتاق من القيود , حيث يندفع الطالب إليها بدافع داخلى فعال , الأمرالذى يتطلبه تكوين الشخصية المبدعة.

ومن المجالات الواسعة لتطوير وتأكيد الاستعدادات والمواهب والقدرات فى كافة الأعمار , وفى كافة المهن هى المهرجانات الوطنية والمعارض الجماعية. ففيها يتم عرض النتاجات العلمية- التقنية , والفنية- الأدبية التى تسهم فى تطوير الشخصية بكل أبعادها وتكشف عن المواهب الحقيقية من أجل تحقيق الفوائد الاقتصادية. وفى معرض حديثه حول المناخ لتربية الإبداع يتذكر تورانس ما قاله أفلاطون: " من يكن مكرما فى بلد ما فسيكون إنتاجه لهذا البلد ", ويضيف: إذا ما كان على الأطفال أن يحرضوا على التعليم وأن يفكروا إبداعيا فينبغى أن نكرم ما يمكن أن يحققه هذا التفكير.

٣- تأثير المناخ على الفعالية الإبداعية:-

أ- فى الوحدات الإنتاجية:

يوجد عادة فى المؤسسات الصناعية الإنتاجية نمطان من العمل : الأول ذو طابع تكرارى , والثانى ذو طابع إبداعى. فالمؤسسات تنتج من جهة سلعا متماثلة ومكررة لوقت معين , ثم تبتكر نوعيات جديدة من السلع أو تسد الحاجات أو المستلزمات الجديدة من جهة أخرى. ويوجد بين هذين النمطين توازن ديناميكى يقود إلى التقدم المستمر للإنتاج ليس فقط من وجهة نظر التشابه والمقاربة , بل من وجهة نظر الاختلاف والتباعد. و يمكن لهذا الإنتاج - إذا لم يتدخل العامل الإبداعى فى أى مستوى من مستوياته - أن يتوقف عن أن يكون مستهلكا لكونه لم يعد قادرا على سد الحاجات الجديدة المتزايدة.

وفى إطارمؤسسة ما إنتاجية لا يتوقف الإبداع عند تطوير الإنتاج وإيجاد المواد الجديدة فحسب , بل ينبغى أن تدرج العلاقات الاجتماعية , والصدق فى العمل , والجو العام أيضا.

ب- على مستوى جماعات البحث (الجماعة العلمية):

إن للجو العام فى مجموعات البحث أهمية خاصة بالتأثير فى العمل العلمى , حيث إن المناخ الملائم يسمح بتواصل المعلومات وتبادلها بين أفراد الجماعة. ويكون هذا المناخ تربة خصبة لإيجاد الأفكار الجديدة أو الكشف عن ظواهر جديدة من خلال عمليات الضبط والمراقبة المتبادلة وإجراء التصحيحات بثقة وتعاون لكل ما يعرض من أفكار ونشاطات. ولا يتوقف تأثير المناخ المناسب عند إيجاد الأفكار الجديدة فحسب , بل يؤثر فى تكوين الشباب الباحثين والقادمين الجدد من خلال اكتسابهم لأصول البحث العلمى وتبادل المعلومات , ويمكن من جهة ما أن تظهر بعض الصراعات بين الباحثين أنفسهم أو بينهم وبين المدير بما يتعلق بنظام التقويم أو الترفع والترقية...الخ.

٤- تأثير الظروف الاجتماعية – التاريخية:-

إضافة إلى المناخ الجماعى , الذى يؤثر فى فعالية الأفراد الذين ينضوون تحت نطاقه , يوجد أيضا المناخ العام الذى يتضمن الحاجة الاجتماعية للنشاط الإبداعى فى المجالات المختلفة. لقد كتب ماركس فى مقدمة "مساهمات فى نقد الاقتصاد السياسى **" أن الإنسانية تضع المهمات التى يمكن حلها , وعند الفحص الدقيق والعميق يستنتج أن هذه المهمات نفسها تولد فقط عندما تكون الظروف العادية لحلها موجودة مسبقا , أو على الأقل فى طور التكوين "**.

ويتضمن المناخ العام أيضا الأشكال التى تدفع وتثيرأفراد المجتمع. الأعياد والمهرجانات الوطنية التى تشكل مجالا لتحريض الإبداع, أيضا بأن مثل هذه الأشكال تؤثر فى تنبيه الإبداع وتحريضه على المجالات الفنية والعلمية والتقنية.

إن الشخصية المبدعة فى أى مجال من مجالات النشاط لا توجد خارج الإطار الاجتماعى حيث تعيش وتبدع. لقد كتب بياجه يقول: **" إن المجتمع وحدة عالية , أما الفرد فإنه لا يصل إلى ابتكاراته وأعماله العقلية إلا بمقدار ما يحتل مكانا فى تفاعل الجماعات , وبالتالى فى إطار المجتمع ككل. إن كبار الناس الذين خطوا اتجاهات جديدة لم تكن إلا نتاج تفاعل وتركيب لأفكار أعدت فى إطار تعاونى مستمر "** . ومثل هذه الأفكار أشار إليها النيوروجى- الفيزيولوجى جيرارد (R. W. Gerard) بقوله **: " إن تصوراتنا المبدعة بكاملها ليست نتاجا لدماغ إنسان معزول, بل لدماغ كان مرتبطا بالتفاعل مع الناس الآخرين وبتاريخ الحضارة بكاملها "**.

إن الاكتشافات العظيمة لم تظهر هكذا كيفما اتفق من دون علاقة مع اكتشافات أخرى مشابهة , ومع الجو العلمى السائد حولها. يقول بورينج (Boring) **: " لا توجد ولادة تلقائية للأفكار"**. ويتضمن تاريخ العلوم حالات عديدة من الاكتشافات المتزامنة لباحثين عملوا مستقلين , وهو برهان على الدور الذى يلعبه العامل التاريخى- الاجتماعى , أو كما يسميه جوته" روح العصر zeitgeist ", وهناك أمثلة لمثل هذه الحالات: لقد اكتشف "نيوتن " و " لابينتز" الحساب التفاضلى مستقلا الواحد عن الآخر. وقد اكتشف كل من "آدامز , ولو فرييز " الكوكب نيبتون , وقد صاغ كل من "كانت " و "الابلاس "بصورة مستقلة النظرية التى تدور حول تطور النظام الشمسى فى السديم الأولى , وأما قانون "بل- ماجيندیه " فهو نسبة لصياغتهما , وقد عمل الواحد مستقلا عن الآخر. وقد كتب داروين "أصل الأنواع " ونشره بصورة سريعة فى الوقت الذى كان فيه " والاس " يحضر لنظرية مماثلة فى ذلك , وأما نظرية جيمس-لانج فى الانفعالات فقد تمت أيضا بعمل مستقل الواحد عن الآخر ثم حملت اسميهما.. . الخ. وغالبا ما يكون هذا التزامن ليس لدى أثنين فقط وإنما يمكن أن يحدث لعدد أكبرمن ذلك.

وبناء على ما تقدم توجد ظروف اجتماعية تاريخية- ذات أساس ثقافى- علمى- وراء الاكتشافات والابتكارات فى العلم والتقنية والفن... إن ظاهرة التزامن فى إيجاد الأفكار المتقدمة كما يقول ياروشفشكى ناتجة من قانونية اجتماعية- تاريخية تتضمن جملة من العوامل المستقلة عن الخصائص الفردية للإبداع. إن الفرد الباحث يظهر كخاضع , لكنه يظهر أيضا كتعبير عن روح العصر , وإن هذا لا يعنى أن دراسة المظاهر السيكولوجية الفردية للنشاطات النفسية تفقد من أهميته (أى روح العصر) لأن كل باحث أو عالم له شروط اكتشافه أو ابتكاره الذاتى الذى لا يتكرر .

ويشير جوردون (G. Gordon) إلى ما يلى : **" إن تراكم المعلومات ووجود المواد العلمية المستخدمة فى أى علم متقدم هما نتائج المساهمات الجماعية بين الأشخاص , أكثر مما هما شخصية , (أى نتاج شخص واحد). إن العلم نتاج اجتماعى , وحتى أولئك الفرديون من بين النظريين فإنهم مرتبطون بباحثين آخرين يقدمون لهم المعطيات اللازمة من أجل إعداد نظرية ما."** ولا ينفى جوردون الطابع الفردى الذى يتداخل مع الطابع الاجتماعى فى عملية الإبداع ,حيث إن اندماج المعطيات التى تقود إلى نتاج جديد هى فى التحصيل الأخير عملية فردية , لكن هذه العملية تأخذ مكانها فى الوسط الاجتماعى وتتأثر به. ويحاول جوردون أن يميز بين الاستعداد الشخصى الذى يدعوه بالإبداع وبين المساهمة الاجتماعية الفردية التى يدعوها الاكتشاف. أما الإبداع فيمكن أن يكون الكمون أو الطاقة (input) النفسية , بينما الاكتشاف هو النتاج الاجتماعى النهائى أو المردود الأخير (output). ونجد أن فكرة الظروف الاجتماعية- التاريخية موجودة فيها.[1]

[1] د. مصطفى ناصف ,ترجمة: د. غسان عبدالحى أبو فخر , الإبداع العام والخاص , سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب- الكويت , صدرت السلسلة فى يناير ١٩٧٨ بإشراف أحمد مشارى العدوانى ١٩٢٣- ١٩٩٠ , ص ٨٢،٧١